حَـــــــــدِيثُ الإِفْـــكِ

كما ورد في الصحيحين

(دراسة بلاغية تحليلية)

إعـــداد

دكتور

محمد عبد الكريم محمد عاشور

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

ملخص البحث

يدور البحث حول حديث الإفك ـ كما ورد في صحيحي البخاري ومسلم، وما سجله هذا الحديث مما اعترى بيت النبوة من شدة لم تطرأ عليهم من قبل ذلك ولا من بعده، حين تطاول أهل النفاق على عرض النبي (ﷺ)، فآثرت أن أقيم دراسة بلاغية حول ذلك الحديث تكشف أسرار نظمه، بما يمثله هذا الحديث من نموذج متكامل للقصة الإسلامية الواقعية بجميع عناصرها ومقوماتها، وقد تداخلت في بنائها التركيبي أصواتٌ عدة، تجمع بين كلام رسول الله (ﷺ) وكلام أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) وكلام بعض الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم).

هذا وقد جاءت تلك الدراسة في مقدمة، وتمهيد يرصد نص الحديث كما ورد في صحيحي البخاري ومسلم، ثم دراسة تحليلية للحديث ، ثم ذيلت الدراسة بخاتمة تسجل أهم الخصائص التي توصلت إليها الدراسة . كما اقتضت طبيعة الدراسة أن يكون المنهج التحليلي هو المنهج المعتمد في تحليل النص وفهم مقاصده .

محمد عبد الكريم محمد عاشور
مدرس البلاغة والنقد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

Abstract

The discussion revolves around the hadeeth of al-Fakk, as mentioned in Sahihi al-Bukhaari and Muslim, and what this hadeeth records, which made the house of prophecy difficult, which did not come before or after it, when the hypocrites attacked the Prophet (ρ) This talk reveals the secrets of its systems, represented by this modern integrated model of the story of Islamic realism in all its elements and elements, and overlapped in the construction of the synthesis of several voices, combining the words of the Messenger of God (ε) and the words of the mother of the believers Aisha (may Allah be pleased with her) God bless them).

This study came in the introduction, and the preparation of the text of the Hadith as contained in the Sahihi Bukhari and Muslim, and then an analytical study of the speech, and then followed the study concluded the most important characteristics of the study. The nature of the study also requires that the analytical method be the method adopted in analyzing the text and understanding its purposes.

مُقَدِّمَة

الحمد لله حافظ الحرمات، وساتر العورات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آل بيته الأبرار الأطهار، وعلى صحابته الكرام الأخيار.

وبعد ،،،

فقد اقتضت حكمة الله ـ ﷻ ـ أن يجعل من رسوله (ﷺ) أسوة في كل شيء، حتى في تحمل الإيذاء بصنوفه وأشكاله، وأعظم هذا الإيذاء هو ما لحق رسول الله (ﷺ) في آل بيته، بل في أحب نسائه إليه وهي أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) حين طالتها ألسنة أهل الإفك فقالوا فيها ما قالوا.

وقد أوردت كتب السنة حديث الإفك مطولًا، يرصد تفاصيل تلك الواقعة بكل ما فيها، وما اعترى بيت النبوة من شدة لم تطرأ عليهم من قبل ذلك ولا من بعده، فآثرت أن أقيم دراسة بلاغية حول ذلك الحديث تكشف أسرار نظمه، وتحاول الاقتراب من النفس التي أنتجت ذلك النظم، بما يمثله هذا الحديث من نموذج متكامل للقصة الإسلامية الواقعية بجميع عناصرها ومقوماتها، وقد تداخلت في بنائها التركيبي أصواتٌ عدة، تجمع بين كلام رسول الله (ﷺ) وكلام أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) وكلام بعض الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم)، فكان حري بالدرس البلاغي أن يقترب من هذا النصّ، يتأمل صوغ مفرداته، وأسرار تراكيبه التي نُسجت في موقف هو من أحلك المواقف التي مرّ بها بيت النبوة ، وقد جعلتُ من صحيحي الإمامين الكبيرين البخاري ومسلم مصدرًا للوقوف على رواية تلك الحادثة، دون غيرهما من كتب الحديث المعتمدة؛ لأصالتهما في بابهما، فهما أصح كتابين بعد كتاب الله ـ ﷻ ـ . ولهما من علوّ المنزلة ما ليس لغيرهما في قلوب المسلمين.

وجاءت تلك الدراسة في مقدمة مشتملة على أهمية الموضوع، وتمهيد يرصد نص الحديث كما ورد في صحيحي البخاري ومسلم، ثم دراسة تحليلية

للحديث، ثم ذيلت الدراسة بخاتمة تسجل أهم الخصائص والسمات التي توصلت إليها الدراسة ، يعقبها فهرس المصادر والمراجع.

كما اقتضت طبيعة الدراسة أن يكون المنهج التحليلي هو المنهج المعتمد في تحليل النص وفهم مقاصده وسبر أغواره.

وبعد فالله أسأل أن يتقبل مني هذا العمل خالصًا لوجهه، مبتغيًا به مرضاته، فمنه . ﷻ . المعونة، وعليه التكلان.

محمد عبد الكريم محمد عاشور
مدرس البلاغة والنقد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

التمـــهيد

نصُّ الحديث

روى الإمامان البخاري ومسلم بسندهما عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدُ

اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ، فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فِي نَاسٍ آخَرِينَ لاَ عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ . تَعَالَى .، وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ الَّذِي قَالَ:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا، وَكُنَّا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي البَرِّيَّةِ قِبَلَ الغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ المُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ المُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ فَسَلَّمَ)، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)، فَقُلْتُ

لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ، وَلاَ نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟». قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي». قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الخَزْرَجِ، وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، قَالَتْ: فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ، وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ

اللَّهِ (ﷺ) قَـائِمٌ عَلَـى المِنْـبَرِ، قَالَـتْ: فَلَـمْ يَـزَلْ رَسُـولُ اللَّهِ (ﷺ) يُخَفِّضُـهُمْ، حَـتَّى سَـكَتُوا وَسَـكَتَ، قَالَـتْ: فَبَكَيْـتُ يَـوْمِي ذَلِـكَ كُلَّـهُ لاَ يَرْقَـأُ لِي دَمْـعٌ وَلاَ أَكْتَحِـلُ بِنَـوْمٍ، قَالَـتْ: وَأَصْـبَحَ أَبَـوَايَ عِنْـدِي، وَقَـدْ بَكَيْـتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًـا، لاَ يَرْقَـأُ لِي دَمْـعٌ وَلاَ أَكْتَحِـلُ بِنَـوْمٍ، حَـتَّى إِنِّي لَأَظُـنُّ أَنَّ البُكَـاءَ فَـالِقٌ كَبِـدِي، فَبَيْنَـا أَبَـوَايَ جَالِسَـانِ عِنْـدِي وَأَنَـا أَبْكِي، فَاسْـتَأْذَنَتْ عَلَـيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْـصَارِ فَأَذِنْـتُ لَهَـا، فَجَلَسَـتْ تَبْكِـي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَـةُ، إِنَّـهُ بَلَغَنِي عَنْـكِ كَـذَا وَكَـذَا، فَـإِنْ كُنْـتِ بَرِيئَـةً، فَسَـيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْـتِ أَلْمَمْـتِ بِـذَنْبٍ، فَاسْـتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُـوبِي إِلَيْـهِ، فَـإِنَّ العَبْـدَ إِذَا اعْتَـرَفَ ثُمَّ تَـابَ، تَـابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) عَنِّي فِيمَا قَالَ: فَقَالَ أَبِي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فِيمَا قَالَ: قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، فَقُلْتُ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ: لاَ أَقْـرَأُ مِنَ القُـرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَـدْ عَلِمْتُ: لَقَـدْ سَمِعْتُمْ هَـذَا الحَـدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، لاَ تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي، فَـوَاللَّهِ لاَ أَجِـدُ لِي وَلَكُـمْ مَـثَلًا إِلَّا أَبَـا يُوسُـفَ حِـينَ قَـالَ: ﴿فَصَـبْرٌ جَمِـيلٌ وَاللَّهُ المُسْـتَعَانُ عَلَـى مَـا تَصِـفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] ثُمَّ تَحَوَّلْـتُ وَاضْـطَجَعْتُ عَلَـى فِرَاشِـي، وَاللَّهُ يَعْلَـمُ أَنِّي حِينَئِـذٍ بَرِيئَـةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَـرِّئِي بِبَـرَاءَتِي، وَلَكِـنْ وَاللَّهِ مَـا كُنْـتُ أَظُـنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْـزِلٌ فِي شَـأْنِي وَحْيًـا يُتْلَـى، لَشَـأْنِي فِي نَفْسِـي كَـانَ أَحْقَـرَ مِـنْ أَنْ يَتَكَلَّـمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِـنْ كُنْـتُ أَرْجُـو أَنْ يَـرَى رَسُـولُ اللَّهِ (ﷺ) فِي النَّـوْمِ رُؤْيَـا يُبَـرِّئُنِي اللَّهُ بِهَـا، فَـوَاللَّهِ مَـا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَجْلِسَهُ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ

مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ العَرَقِ مِثْلُ الجُمَانِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ». قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ ﷻ، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ العَشْرَ الآيَاتِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ – إِلَى قَوْلِهِ – ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ». فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (ﷺ) فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالوَرَعِ، قَالَتْ: وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ، فِيمَنْ هَلَكَ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: «فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هَؤُلاَءِ الرَّهْطِ» ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: "وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ، قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"(١).

(١) الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه والمعروف باسم "صحيح البخاري" لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري تـ (٢٥٦ هـ). تحقيق/ محب الدين الخطيب و محمد فؤاد عبد الباقي. (المطبعة السلفية ـ القاهرة . ط: الأولى: ١٤٠٠هـ). حديث رقم : ٤١٤١. في كتاب المغازي / باب حديث الإفك. وصحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري . تـ (٢٦١هـ). تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. (دار الحديث ـ القاهرة. ط: الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م). =

الدراسة التحليلية للحديث

استهلت أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) حديثها ببيان عادة النبي (ﷺ) في أسفاره فيما يتعلق بنسائه، فكان (ﷺ) يتحرى تطييب نفوسهن وإرضاء مشاعرهن ، وإطفاء نار الغيرة في قلوبهن، فكان لا يتخير أيتهن شاء، بل كان يدع ذلك لمقادير الله فيهن بإجراء القرعة بينهن، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه.

قالت عائشة: " **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَعَهُ**"

القصد من تصدير الكلام بفعل الكينونة هو الإخبار بكونه عادة مستقرة وأمرًا دائم الوقوع ، وليس الإخبار عن وقوعه فيما مضى فقط ، فكان رسول الله (ﷺ) يقرع، ولا زال يقرع طيلة حياته.

وزاد من تحقيق تلك العادة وثباتها مجيء التقييد بأداة الشرط (إذا) التي من أبز خصائصها الدلالة على تحقق وقوع الشرط، وأن الأمر الذي دخلت عليه أمر مقطوع بوقوعه[1]، وليس المقصود هنا القطع بوقوع جملة الشرط بقدر القصد إلى القطع بوقوع الجواب، وهو الإقراع بين أزواجه (ﷺ)، وعند مسلم (بين نسائه) وفي إضافة الأزواج أو النساء إلى ضمير النبي (ﷺ) فيه من شدة تعلقهن به وحرصه عليهن ما فيه .

وقولها: فأيهن، وعند مسلم فأيتهن .. يعني تمام عدله (ﷺ) بينهن وأنهن عند النبي (ﷺ) في الفضل والمنزلة سواء، وليس لإحداهن ـ في الظاهر ـ فضل على الأخرى .

=حديث رقم: ٢٧٧٠/٥٦ في كتاب التوبة / باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف. واللفظ للبخاري .

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) . للخطيب القزويني. تحقيق : إبراهيم شمس الدين. (دار الكتب العلمية . بيروت ـ لبنان . ط : الأولى ٢٠٠٣م ـ ١٤٢٤هـ) صـ٧٩ .

ويكشف الجناس التام[1] بين قولها: (خرج سهمها) و (خرج بها) عن خروج الثاني من رحم الأول، وبيان أنه متوقف عليه، فخروج سهم إحداهن يعني تعلق القرعة بها ووقوع الاختيار عليها والسهم لا يخرج بذاته وإنما يخرجه المقترع، والمجاز في إسناد الخروج للسهم يرسم صورة رائعة، تكشف عن حالة شعورية يغمرها الفرح والسعادة والظفر بما اقتُرِع بشأنه .

وأي ظفر أعلى من مصاحبة النبي (ﷺ) في أسفاره، فكأن السهم قد خرج بنفسه يحمل اسم صاحبه يزف إليه بشرى المصاحبة وجميل المعاشرة، والتي جاء التصريح بها في قولها: خرج بها رسول الله (ﷺ) معه . فقولها: (معه) تأكيد على تلك الصحبة، وعلو قدرها وبيان أن الشرف يكون في معيته (ﷺ) حيث كان.

وأما قولها (رضي الله عنها) : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله (ﷺ) بعد ما أنزل الحجاب .

فتلك الجملة متولدة مما قبلها وخارجة من أصلها، وتمثل تخصيصًا للعموم الوارد فيها، إذ تحكي لنا خروج سهم أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) في تلك الغزوة بعد بيان عادته (ﷺ) مع سائر نسائه في سائر أسفاره .

---

(١) الجناس التام : تشابه اللفظين واتفاقهما في أنواع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها مع الاختلاف في المعنى . ينظر الإيضاح صـ ٢٨٨ ، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (المعاني والبين والبديع) . الشيخ /عبد المتعال الصعيدي . (مكتبة الآداب ـ القاهرة . ط: السابعة عشرة : ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م) صـ٦٤٠ . وعلم البديع. دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع . د/ بسيوني عبد الفتاح فيود . (مؤسسة المختار ـ القاهرة . ط : الثالثة : ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م) صـ ٢٧٢ .

والمقصود بتلك الغزوة غزوة بني المصطلق، وتسمى ـ أيضا ـ بغزوة المريسيع؛ نسبةً لاسم بئر قريبة من هذا الحي، وكان ذلك سنة خمس من الهجرة على أرجح الأقوال(١).

وقد ذُكرت تلك الغزوة على لسان أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) منكَّرة مبهمة دون تعيين لها باسمها الذي عرفت به فقالت : في غزوة غزاها. ولا شك في أن تلك الغزوة كانت من أشد الغزوات وأعظمها أثرًا في نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها)؛ لارتباطها بتلك الحادثة الأليمة التي ألمت بها، فهي أعرف في نفسها من كل غزوة غزاها النبي (ﷺ)، ولكن هذا الإبهام يوقفنا على مدى كراهية أم المؤمنين (رضوان الله عليها) لتلك الغزوة، باعتبارها ظرفًا لما حل بها، وتطلعها (رضوان الله عليها) لطيّ تلك الصفحة من الزمان كله، وتجهيلها وتنكيرها .

ولا شك في أن الإقراع هنا كان عند إرادة الغزوة . كما ورد في مطلع الحديث . وليس في أثنائها . كما يوهم التصريح بحرف الجر (في) في قولها: في غزوة . ولكن جعل الغزوة هنا ظرفًا للإقراع بين النساء والمقصود إرادتها يعني أن الإقراع صار جزءًا من الفعل وحدثًا من أحداثه، ومن ثم كان الهمّ بالحسنة حسنة، وعفي عن الهمّ بالسيئة تفضلًا من الله (ﷻ).

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام . جمال الدين عبد الملك بن هشام . المتوفى سنة (٢١٣هـ) . تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي . (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر . ط : الثانية: ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥م) جـ٢/صـ٢٨٩، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. المتوفى سنة (٤٨٥هـ). (دار الكتب العلمية ـ بيروت. ط: الأولى: ١٤٠٥هـ) جـ٤/صـ٤٤ . والسيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي . المتوفى سنة (٧٧٤هـ). تحقيق: مصطفى عبد الواحد. (دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت ـ لبنان. (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٦م) جـ٣/صـ٢٩٧ .

وكان يمكن الاكتفاء هنا بالقول : ...في غزوة فخرج فيها سهمي . ولكنها آثرت ذكر الفعل الماضي (غزاها) رغبة في التأكيد على طيّ تلك الصفحة بما فيها من آلام تظهر آثارها على حروف المد في (غزاها)، وكأن تلك الحروف عوامل إخراج وتنفيس لتلك الآلام وهذه الزفرات، إضافة إلى ما يحدثه هذا التماثل الصوتي بين (غزوة . غزاها) من تأثير إيقاعي يعمل على استمالة المخاطب وتشويقه وشحذ همته في الإقبال على النص بكل ما فيه.

وأما قولها : (فخرج فيها سهمي) . فعملت الفاء فيه على الربط بين معاقد الكلام في صورة قوية محكمة تتراص فيه الجمل والأحداث في بناء محكم النسج، يتصل فيه السابق باللاحق دون فاصل زمني أو نفسي، مما يعكس تزاحم الأحداث في نفس المتكلم، ورغبته في إيقاف السامع على تلك الحالة الشعورية التي تعتمل في نفسه.

وما قيل في نسبة الخروج إلى السهم في مطلع الحديث يقال هنا ـ أيضا ـ غير أن اللافت في جملة (فخرج فيها سهمي) هو تقديم الجار والمجرور على المتعلق، الأمر الذي يصرف العناية إلى الجار والمجرور أكثر من العناية بالمتعلق ذاته، فالعين هنا ذاهبة إلى تلك الغزوة التي خرج فيها سهم أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وأثر تلك الغزوة وما جرى فيها من أحداث علي نفسها (رضي الله عنها)، والتي تعمل بعض الحروف بصفاتها ومخارجها على تنفيس شيء منه، كما في حروف المد والهمس في (فيها سهمي)، إضافة إلى حرف الهاء الذي يخرج من أقصى الحلق يحمل زفرات القلب وينطلق بها إلى خارج النفس.

ولا يزال للإيقاع دوره البالغ في استقطاب القارئ نحو النص ومشاركة منشئه في مشاعره وأحاسيسه، فمع تناثر حروف المد واللين يأتي تماثل الكلمات والجمل وتعادلها، فقولها: (فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله) يماثل قولها: (فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله) ويعادله.

وخروج السهم يعني ثبوت القرعة على أحد المقترعين وهو يجانس الخروج الحقيقي للسفر مع رسول الله (ﷺ) تجانسًا لفظيًّا إيقاعيًّا يورث الكلام حيوية ونشاطًا وحركة تأسر الأسماع وتأخذ الألباب .

وقولها: (بعد ما أنزل الحجاب) قيد بالظرف الزماني، ترصد من خلاله جزئيات الحدث، وتجمع شتاته، وتمهد به لما يأتي بعده؛ لتوقفه عليه [1]، وهذا يعكس إدراك أم المؤمنين (رضي الله عنها)، ووعيها بملابسات قضيتها، فتقدم فيها ما تحتاج إليه لاحقًا، وقيمة تلك الجملة تكمن في إجابتها على أسئلة تثار فيما بعد داخل النص سيشار إليها في حينها.

والمقصود بنزول الحجاب نزول الأمر به وفرضيته [2]، وسر التعبير بالإنزال يكمن في صرف الأنظار عن مشقة التكليف إلى شرف المكلِّف وشرف المكلَّف به، فهنا تذهب مشقة الطاعة .

ثم تنتقل (رضي الله عنها) من بيان عادته (ﷺ) في أسفاره، إلى ذكر هيئة التنقل بها، وفقدان عقدها. فتقول (رضي الله عنها) :

"**فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ** "

اللافت في هذا الجزء من الحديث عدة أمور:

منها: بناء فعلي الحمل والإنزال على ما لم يسم فاعله في قولها: (أُحمَل في هودجي وأُنزَل فيه). وهذا البناء إضافة إلى كونه يجعل العناية مركزة على الفعل ونائب الفاعل دون نظر إلى من تعلق به الحمل، فإنه

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ومحب الدين الخطيب ، وعبد العزيز بن عبد الله بن باز (دار المعرفة ـ بيروت . ١٣٧٩هـ) جـ٨/صـ٤٥٨ .

(٢) السابق. الصفحة ذاتها .

يكشف هنا عن ضعف من وقع عليه الفعل وهو أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وبيان أنها لا تملك من أمر الحمل والإنزال شيئًا، وإنما هي محمولة إذا حملوا، ومنزول بها إذا نزلوا، ومنشأ هذا الأمر قد يكون حداثة سنها من ناحية، وعناية القوم بها من ناحية أخرى .

ومنها: جعل الهودج ظرفًا للحمل والإنزال، وفيه من المبالغة في الحفظ والتستر ما فيه، فإنها لا تكاد تبرح هودجها، يستوي في ذلك حالة الحلّ والترحال. والهودج: محمل له قبة تستر بالثياب، يصنع من العصيّ ثم يجعل فيه الخشب فيُقَبّب، يوضع على ظهر البعير، تركب عليه النساء ليكون أستر لهن(١).

وقولها (رضي الله عنها) : (فسرنا حتى فرغ ...) تعكس فيها (حتى) بثقل وقعها، وتباطؤ النطق بها، شدة وقع هذه الغزوة، وآثارها على نفس أم المؤمنين، وسبقت الإشارة إلى حرص أم المؤمنين على طيّ صفحة هذه الغزوة من سجل الزمان، فذكرتها آنفًا منكرة، وهي هنا تعيد الحديث عنها بمزيد من التنكُّر لتلك الغزوة؛ رغبة في طيّ أحداثها فتشير إليها إشارة البعيد في قولها : (من غزوته تلك) وهذا يعني أن جراحًا بدأت تتكأ في قلبها، بعد أن كادت تطويها من ذاكرتها، ومن ثم نجد في بناء العبارات ما ينم عن صراع نفسي وحالة شعورية بدأت تعتري المتكلم، حين تدافعت في خاطره الأحداث، وتزاحمت لقطات الماضي بمآسيه وأوجاعه.

وأظهر مظاهر ذلك الصراع هو تكرار بعض الكلمات والتراكيب مثل: (قفل، دنونا قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل) الأمر الذي لا نلمح وراءه توكيدًا لشيء بقدر ما نراه حاملًا لقلق نفسي وهزة شعورية نتيجة استحضار مشاهد الأحداث التي ألمت بها (رضوان الله عليها) من الطعن في

(١) ينظر: لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور المتوفى سنة (٧١١ هـ) . (دار صادر ـ بيروت . ط: الثالثة : ١٤١٤هـ) مادة (هدج) وفتح الباري: ٤٥٨/٨ .

عرضها وتغير النبي (ﷺ) عليها، وغيرها من المشاهد التي سيأتي الحديث عنها.

لا تزال الفاء تمضي قدما في الربط بين معاطف الكلام، وتبرز شدة التماسك بين معاقده، وتلحق الثاني منه بالأول وترتبه عليه وتجعله كله كلامًا واحدًا نابعًا من شعور واحد، تتزاحم فيه الجمل لتبرز تزاحم الأفكار والمشاعر. كما في قولها: (فقمت ... فمشيت ... فلمست ... فرجعت ... فالتمست ... فحبسني ...) إلى آخر تلك الجمل التي تعكس الترابط بين تلك الأحداث وشدة إحكامها.

وقضاء الشأن كناية عن قضاء الحاجة، وهذا ترفع في التعبير وأدب سامٍ من آداب القول صار سمتًا من سمات هذا الجيل.

وتقييد العقد بكونه من جزع ظفار في قولها: (فإذا عقد لي من جزع ظفار...) يظهر قيمة هذا العقد في نفسها ومدى تعلقها به، ولا نُبعد في هذا المقام حداثة سنها (رضي الله عنها)، ومدى تأثير عقد بهذا الوصف في نفسها حتى حملها على الرجوع إلى مكانها التي قضت فيه شأنها، ولو ذهب هذا القيد فقيل : فإذا عقد لي قد انقطع لذهبت القيمة الدافعة للرجوع إليه والتماسه في الموضع الذي فقدته فيه، وقد ذكر ابن حجر قيدًا آخر يبرز تعلقها بهذا العقد، نقله عن الواقدي (رحمه الله) وهو " كَانَتْ أُمِّي أَدْخَلَتْنِي بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)"[(١)].

والجَزْعُ: الخَرَزُ الذي فيه سواد وبياض، تشبَّه به الأعين، قال امرؤ القيس:

كأنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنا * وأَرْحُلِنَا الجَزْعُ الّذِي لَمْ يُثَقَّبِ**[(٢)]

---

(١) فتح الباري :جـ٨/صـ٤٩٥ .

(٢) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج . (مكتبة حكومة الكويت ـ سلسلة التراث العربي.=

وظفار: مدينة باليمن قرب صنعاء، وهي التي ينسب إليها الجزع الظفاريّ، وبها كانت مسكن ملوك حمير، وفيها قيل: من دخل ظفار حمّر.[١]

وقولها: قد انقطع. مجاز أُسند فيه فعل القطع إلى مفعوله، والغرض من هذا الإسناد تبرئة ساحة المتكلم من مباشرة الفعل، أو أن يكون له دخل في تحصيله، وانقطاع العقد وحده ليس دليلًا على فقده، وإنما يظهر الفقد من أثر السياق، ووضع القطع موضع الفقد هنا يظهر سبب الفقد، فلولا القطع ما كان الفقد، وقل مثل ذلك في إسناد فعل الحبس للابتغاء في قولها: فحبسني ابتغاؤه، فالابتغاء لا يحبس، وإنما هو السبب الحامل على الحبس، فلقوة السبب أسند الفعل إليه على اعتبار أنه فاعله مجازًا.

ويبقى للإيقاع والتماثل الصوتي في هذا النسق التركيبي دوره البالغ في الكشف عن خفايا النفس والتأثير في وجدان المتلقي، والذي يمكن أن نعتبره مظهرًا من مظاهر الدلالة في هذا الحديث، فلا يمكن أن يكون الجناس في كلمات مثل (فلمست صدري، فالتمست عقدي) لا يمكن ألا يكون لهذا الجناس دلالة تتصل بنفس المتكلم، فضلا عن الإيقاع الجذاب الذي يجده المتلقي عند سماع هذه الكلمات من تماثل حروفها واختلاف معانيها، ثم تكرار حرف السين في (فلمست والتمست، وحبسني) وهي حرف همس وصفير[٢] يتناسب مع سكون الليل وصفاء ما يقع فيه، وهذا التوجس الحذر نشعر به ونراه في حركة أم المؤمنين (رضوان الله عليها) حين لمست صدرها فلم تجد عقدها، وحركتها

=١٣٨٥هـ .١٩٦٥م) مادة (ج ز ع) ، وديوان امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف . سلسلة ذخائر العرب . ط : الخامسة دوت تاريخ) صـ٥٣ .

(١) معجم البلدان : أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي . المتوفى سنة (٦٢٦هـ) . (دار صادر ـ بيروت . ط: الثانية : ١٩٩٥م) جـ٤/صـ٦٠ .

(٢) ينظر : الكتاب : أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر الحارثي . الملقب بسيبويه . المتوفى سنة (١٨٠هـ) تحقيق : عبد السلام محمد هارون . (مكتبة الخانجي ـ القاهرة . ط : ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) جـ٤/صـ٤٨١ .

في طلب عقدها وبحثها عنه، وحبسها في ابتغائه، فلم تكن الكلمات وحدها كافية في نقل تلك الأحداث بل عملت الحروف أيضا . بجرسها ومخارجها وصفاتها على رسم لوحة الأحداث وكشف ظلالها.

وبعد أن وصفت أم المؤمنين حالها في رحيل القوم ونزولهم بها، وكيف فقدت عقدها أثناء قضاء شأنها، تخبرنا (رضي الله عنها) بمشهد آخر ترصد فيه رحيل القوم عنها وتركهم لها خلفهم ، فتقول (رضي الله عنها):

"**وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَسَارُوا**".

في هذا الجزء من الحديث تظهر لنا أم المؤمنين (رضي الله عنها) بعض صفات النساء الجسمية في ذلك الوقت، الأمر الذي يمكن أن نلتمس من خلاله العذر للقوم الذين كانوا يحملون الرحل حين ذهبوا وتركوها خلفهم، وهي بذلك لا تكتفي بسرد الأحداث فقط ، وإنما تقدمها مقرونة بأسبابها ونتائجها.

فتقول (رضوان الله عليها): (وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي). ويرحلوني هي أخت أُحمَل وأُنزَل، في الدلالة على ضعفها وشدة العناية بها وكمال التحفظ والتستر عليها. وقولها: فاحتملوا هودجي. وعند مسلم: فحملوا. دون مراعاة الاحتشاد والتكلف المقرون بصيغة الافتعال في (فاحتملوا)، وهذا مناسب لخفة الهودج وعدم ملاحظة غياب أم المؤمنين (رضي الله عنها)، فَوجُودُها فيه وعدمه عند الحمل سواء، وعليه فالصياغة عند مسلم أنسب للسياق، أما المفاعلة المذكورة في رواية البخاري فهي كاشفة عن مدى العناية والتحفظ في حمل أم المؤمنين (رضي الله عنها)، فهي وإن خفّ حملها إلا أن القوم يتحرزون من ململتها واضطرابها حين تُحمل، فيتمهلون في الحمل،

الأمر الذي يظهر معه نوع من المجاهدة الظاهرة، وعليه فنقول إن رواية البخاري أبرّ بإظهار كمال العناية، ورواية مسلم أبر بدلالة السياق حين أرادت أم المؤمنين أن تلتمس العذر لحُمّال هودجها بإظهار خفة النساء في ذلك الزمان.

وقولها (رضي الله عنها): (وهم يحسبون أني فيه) جملة اعتراضية، الغرض منها الاعتذار عن هؤلاء الرهط ورفع الحرج، ودفع التهمة في أن يكونوا غادروا مواقعهم وهم على علم بغياب أم المؤمنين (رضي الله عنها) عن رحلها؛ لذا آثرت التعبير بالحسبان الذي هو أقرب إلى الحقيقة من الظن[1]، ولم تكتف أم المؤمنين (رضي الله عنها) بتقديم تلك العلة والتماس ذلك العذر، بل أخذت تلتمس علا لتلك العلة، وأعذارًا لهذا العذر مما يدل على سلامة صدرها (رضي الله عنها) فقالت: (وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن)، قال النووي (رحمه الله): " قَوْلُهَا يهبلْنَ ضَبَطُوهُ عَلَى أَوْجُهٍ أَشْهَرُهَا ضَمُّ الْيَاءِ وَفَتْحُ الْهَاءِ وَالْبَاءِ الْمُشَدَّدَةِ أَيْ يَثْقُلْنَ بِاللَّحْمِ وَالشَّحْمِ وَالثَّانِي يَهْبَلْنَ بِفَتْحِ الْيَاءِ والباء وإسكان الهاء بينهما والثالث بفتح الياء وضم الباء الموحدة وَيَجُوزُ بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَإِسْكَانِ الْهَاءِ وَكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ يُقَالُ هَبِلَهُ اللَّحْمُ وَأَهْبَلَهُ اذا أثقله وكثر لحمه وَشَحْمُهُ "[2]، وهي بهذا المعنى تفسير لقولها: (خفافًا)، وجملة: (ولم يغشهن اللحم) التي بعدها تفسير لها، فهنا ثلاث جمل كل واحدة منهن تحمل معنى الأخرى لتقويته وتأكيده، وعلة تتابع الجملتين الأولى والثانية دون عطف ظاهرة لنزولها منها منزلة نفسها؛ فإن معناهما واحد، والشيء لا يعطف

(١) ينظر: معجم الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري. المتوفى سنة (٣٩٥هـ) . تحقيق: محمد إبراهيم سليم (دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع . القاهرة. ١٩٩٨م) صـ٩٩ .

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج : أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف النووي . المتوفى سنة (٦٧٦هـ) . (دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط: الثانية : ١٣٩٢هـ) جـ١٧/صـ١٠٤ .

على نفسه أما وجود العاطف في قولها: (ولم يغشهن اللحم) فهو مما يجب الوقوف عنده؛ لأن الجملة تحمل معنى الجمل السابقة فكان يجب اتصالها بها دون عاطف، غير أن عطفها يؤذن بمغايرتها عما سبقها؛ إظهارًا لمزيد العناية بالمعطوف، وإبرازه خبرًا مغايرًا لما قبله ، وكأن في التغشية تعظيمًا وتكثيفًا للحم الذي يعتري أجساد النساء فوق يهبلن وليس تفسيرًا له، والقصد من ذلك كله تمكين المعنى وتقويته في نفس السامع.

وأما قولها: (إنما يأكلن العلقة من الطعام) فقد وقع موقع الجواب عن سؤال يثار من الكلام السابق يستكشف سبب خفة النساء وعدم تثاقلهن باللحم، فجاءت تلك الجملة تجيب عن هذا التساؤل، ومن ثم فصلت عما قبلها كما يفصل الجواب عن السؤال، والعُلْقة: ما فيه بُلْغة من الطعام إلى وقت الغذاء(١) والمقصود به الشيء القليل الذي يسكن الرمق(٢)، والجملة جاءت في قالب القصر، وجُعلت إنما طريقًا له وذلك لتأكيد الاعتذار لهؤلاء الرهط الذين حملوا الهودج، ولم يشعروا بغيابها، فهي تسوق العلة تلو الأخرى للتأكيد على هذا المعنى، وتشبع المعنى بذكر علل العلة، فسبب حمل الرهط للهودج دون شعور بغيابها هو ما كان عليه النساء في ذاك الوقت من خفة أجسادهن، وسبب خفتهن أنهن كن يكتفين من الطعام بما يقيم صلبهن، واختيار إنما طريقًا للقصر لجعل هذا المعنى مأنوسًا لدى المخاطبين، فالشأن في إنما أن تكون لما يأنسه المخاطب ولا يدفع صحته(٣)، فالمعهود لدى الطباع السليمة أن تتخفف النفس من الطعام وتكتفي منه بمقدار الحاجة، والمستغرب لدى تلك الطباع أن يستكثر المرء من طعامه حتى يُهَبّل ويثقل لحمه .

---

(١) لسان العرب . مادة (علق)

(٢) ينظر : فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٠ .

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة (٤٧١هـ) تحقيق: أبو فهر محمود محمد شاكر . (مكتبة الخانجي ـ القاهرة . ط: الخامسة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م) صـ٣٣٠.

وكان يمكن أن تقف أم المؤمنين (رضوان الله عليها) على هذا القدر في الاعتذار عمن حملوا هودجها، ولكنها لا تزال تواصل حشدها لبواعث الاعتذار عنهم بما يدل على سلامة صدرها ونقاء سريرتها (رضوان الله عليها) فتقول : (فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه) . والملاحظ هنا هو اختلاف طريق تعريف الهودج عما عُرّف به في الكلام السابق، فقد سبق ذكره مضافًا إلى ضمير تكلمها في قولها: (فكنت أُحمَل في هودجي وأُنزَل فيه)، وهو هنا معرف بـ (أل) دون الإضافة، أما الأول فنلمح وراءه قوة الالتصاق به، وكثرة الملازمة له، وذلك قبل مفارقتها له لقضاء شأنها، أما بعد المفارقة وسرد أسباب حمل القوم له دون علمهم بغيابها عنه، فقد خالفت طريق تعريفه، فلم تقل: فلم يستنكر القوم خفة هودجي، بل قالت: (خفة الهودج) مكتفية باستحضار المعرفة الذهنية السابقة عنه عن طريق أل العهدية، مسقطة رابطة الإضافة إلى ياء التكلم؛ إيذانًا بانفصالها عنه.

وقولها: (حين رفعوه وحملوه) قيد لعدم الاستنكار لخفة الهودج، يبين حالة الرفع والحمل، وإشباع المعنى هنا بتكرار ألفاظ تتقارب معانيها مثل الرفع والحمل يكشف عن الآلام التي تختلج النفس حين تستحضر تلك المشاهد.

وأما قولها: (فبعثوا الجمل وساروا) فيمثل الحبكة التي تجتمع عندها خيوط ما سبقها من أحداث، ونقطة انطلاق للأحداث التي تليها؛ لذا تجد وقع تلك الجملة في السمع والنفس مختلفًا، فيكتنفها التباطؤ والتثاقل، نتيجة انتشار حروف المد بين معاطفها، وتتابع حركات الفتح على حروفها، بما ينبئ بثقل هذا الموقف ورغبة المتكلم في تسليط الضوء عليه باعتباره حدثًا فاصلًا بين مجريات القصة بأكملها، ولا يتنافى تباطؤ وقع تلك الجملة مع عطفها على ما سبقها بالفاء، فهي وإن كانت مرتبطة بما قبلها ارتباطًا وثيقًا فهي في ذاتها تحمل معنى ثقيلًا على النفس، والسير وإن كان مفهوما من قولها: (فبعثوا) غير أن في ذكره توغلًا في البعد وعمقًا في إظهار الإحساس بالفقد.

ثم يستمر سرد الأحداث لبيان ما جرى لأم المؤمنين (رضي الله عنها) في بناء محكم النسج، يسلم كل جزء منه إلى ما بعده . وفي هذا الجزء من الحديث يُلقَى الضوء على حال أم المؤمنين (رضي الله عنها) حين سار الجيش وخلفوها وراءهم، فتقول (رضوان الله عليها) :

"وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ"

الواو في قولها (ووجدت عقدي) لعطف معنى على معنى، ومضمون كلام على مضمون كلام سابق، وليس المقصود بالعطف أن إيجاد العقد كان مصاحبًا لبعث القوم للجمل وسيرهم، فقد سبق بيان أن ابتغاء العقد أخذ حيزًا من الوقت استدعى أن تعبر عنه بالحبس في قولها : فحبسني ابتغاؤه، فكان ظاهر المقام أن تحل (ثم) محل (الواو)، ولكن رغبة أم المؤمنين (رضي الله عنها) وتطلعها إلى بقاء الجيش في أماكنهم حتى تجد عقدها وترجع إليهم، فتصحبهم ويصحبونها، قد يكون ذلك سر مجيء (الواو) هنا دون (ثم).

والملاحظ في كلام أم المؤمنين (رضي الله عنها) حرصها على إضافة العقد إلى ضمير تكلمها، في أكثر من موضع، (فإذا عقد لي، فالتمست عقدي) وهنا (ووجدت عقدي)، وكان يمكن أن تُلفت إليه بأل التي تصرف الذهن إلى عهده القريب بما يعرفه عن هذا العقد، فتقول: فوجدت العقد، ولكن

الرغبة في رسم تعلق نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها) بعقدها وهي الجارية حديثة السن، هي التي دعت إلى تلك الإضافة وبيان هذه النسبة .

وجملة (بعد ما استمر الجيش) جملة ظرفية وقعت موقع الحال، تعكس المفارقة النفسية التي حصلت لها تجاه موقفين متباينين: الأول : فرحها بإيجاد العقد، والثاني: ألمها برحيل الجيش دونها، الجملة الحالية هنا عملت على تصوير الألم الحاصل بمسير الجيش وكيف أنه أنسى وأذهب فرحة إيجاد العقد.

وقولها: (فجئت منازلهم .... فتيممت منزلي) تتجلى فيه فطنة أم المؤمنين (رضي الله عنها) على حداثة سنها، فإن المرء متى استشعر فقدان شيء فإن أول مكان ما يبحث فيه عنه هو آخر موضع نزل فيه، وقولها : (وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليَّ) الظن فيه بمعنى العلم[1]؛ لأنه ما حملها على مكثها في منزلها الذي كانت فيه إلا تيقنها برجوع القوم إليها حين يستشعرون فقدها.

وقولها: (وليس بها منهم داع ولا مجيب)، جملة حالية تعمل على تصوير خلجات النفس وما يكتنفها من قلق واضطراب، حين فقدت في تلك الصحراء الموحشة، والضمير في بها يرجع إلى تلك المنازل التي كان ينزل فيها الجيش وخلت منهم بعد مسيرهم عنها، واختصاص الداعي والمجيب بكونه منهم، يعني أن تلك الثلة المباركة التي آمنت بالنبي (ﷺ) وصدقته هي المستحقة للأمن، ومنهم ، وبهم، ومعهم يكون الأمن، فليس ما يعني أم المؤمنين (رضي الله عنها) في تلك الحال أن تجد أي مجيب أو أي داع، وإنما المهم أن يكون منهم، ولهذا قدمت الجار والمجرور على المتعلق.

وجملة (وظننت ....) واقعة موقع الحال، واقترانها بالواو يجعلها خبرًا مستقلًا بذاته، مما يحمل السامع على الوقوف مرة مع رجوعها إلى منازل

(١) ينظر: فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦١ . والفروق اللغوية : ٣٤٣.

الجيش ومرة أخرى مع ظنها الذي ظنت وحمَلَها على الرجوع إلى منازل القوم، بل إلى المنزل الذي كانت تنزل فيه، ففي قولها: (فتيممت منزلي) تخصيص للعموم الوارد في قولها : (فجئت منازلهم) وتضييق لدائرة نزول الجيش المتسعة بكثرة عددهم إلى أضيق حيز وهو المنزل الذي كانت تنزله؛ رفعًا لما يمكن أن يحصل لهم من مشقة البحث عنها (والباء) في قولها : (كنت به) ترسم التصاقها بهذا المكان، وحرصها على ألا تنفك عنه، سواء قبل مسير الجيش أم بعده.

ثم تنتقل أم المؤمنين (رضي الله عنها) إلى كلام آخر تصف فيه حالها وما حدث لها بعد ما رجعت إلى مكانها الذي كانت فيه قبل فقدانها ، فتقول (رضي الله عنها): (فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت) و(بينا) أصلها (بين) أشبعت الفتحة فتولدت الألف " وهي ظرف يشعرك كلما قرأته بشيء من المفاجأة، وإشباع حركة الفتح التي تتولد منها الألف يشعرك بأهمية الظرف وما يأتي بعده من مفاجأة"[1] والمفاجأة هنا في غلبة النوم عليها، والأصل غلب النوم عيني، وإسناد الغلبة للعين هنا مجاز يعكس تمكن النوم من العين حتى صار فعله أي: النوم، فعلًا لها، وبناء الأسلوب على هذا النوع من التجوز، وتصديره بما يشعر بالمفاجأة يوقفنا على مدى حرص أم المؤمنين (رضوان الله عليها) على ألا تغفل لها عين، وأن النوم قد تمكن منها بعد ما استفرغ طاقتها، والفاء في قولها: (فنمت) تعكس الاستسلام المطلق لسطوة النوم في مكان قلّما يكون فيه راحة لجسد أو غفلة لعين.

وقد بدا جليًّا في هذا المقطع من الحديث بما يحمله من تثاقل وتباطؤ في نطق بعض كلماته وامتداد صوتي في بعض حروف، نراه في إشباع حركة الفتح في (بينا) وتقديم المسند إليه (أنا) على الخبر الفعلي، وإبراز مكان

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري . دراسة في سمت الكلام الأول . د/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة ـ القاهرة ط : الثانية : ١٤٣٠هـ ـ ٢٠١٠م) صـ ٦٥٨. بتصرف يسير.

الحدث (في منزلي)، بدا من خلال ذلك كله تثاقل معاني الهمّ والشدة التي حصلت في نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها) إثر فقدان الجيش لها رغم تباعد الزمان بين وقوع الحادثة وزمن سردها.

والواو في قولها : (وكان صفوان بن المعطل ....) لاستئناف خبر جديد له مزيد علاقة بالمعنى المراد، ويحمل مقاصد لا غنى عنها في إظهار براءة أم المؤمنين (رضوان الله عليها) مما نسب لها، وأول هذه المقاصد هو بيان أن تعقب صفوان بن المعطل للجيش كان من عادته التي اشتهر بها، وذلك عن طريق تصدير الكلام بلفظة (كان)، وقد نقل ابن حجر ذلك في حديث أبي هريرة : "وكان صفوان يتخلف عن الناس يصيب القدح والجراب والإداوة"[١] والملاحظ هنا هو إشباع أم المؤمنين (رضي الله عنها) الحديث في ذكر صفوان، وبيان نسبه وأصوله (صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني) الأمر الذي يوحي بمكانة ذلك الصحابي الجليل بين الناس، وعلو قدره، فقد كان (ﷺ) من فضلاء الصحابة، وشهد له رسول الله (ﷺ) بالصلاح . وسيأتي ذكر ذلك في الحديث بإذن الله . تعالى . .

ثم أخذت (رضي الله عنها) تبرز جانبًا آخر من جوانب قصتها وهو ما يتعلق بعنصر الزمان الذي جرت فيه أحداث هذا المشهد فتقول (رضي الله عنها): (فأصبح عند منزلي ...) وعند مسلم : (فادَّلج فأصبح ...) وادّلج بالتشديد من السير آخر الليل، وبسكون الدال: السير أوله[٢]، والمناسب هنا التشديد لقولها: فأصبح، مما يعني تحديد زمن السير بوقوعه في آخر الليل، ولم يرها إلا في الصباح .

والعندية في قولها: (عند منزلي) تعني أن ثمة مسافةً تباعدُ بينه وبينها أوقفته فقط على بيان أن ما رآه هو سواد إنسان، والملاحظ هنا في هذا المشهد

(١) فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٢ .
(٢) ينظر : لسان العرب . مادة (دلج) .

هو تعاقب الجمل وتسارعها أمارة على توالي الأحداث وتسارعها، منذ دخول صفوان بن المعطل على مسرح الأحداث، نرى هذا التسارع في قولها: (فأصبح، فرأى، فأتاني، فعرفني) مما يعكس تزاحمًا نفسيًّا في المشاعر والأحاسيس بدأ يعتمل في نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها) وهي الجارية حديثة السن، التي خلفها الجيش وراءه.

وسواد الإنسان لا يظهر معه للرائي تمييز، فلا يفرق به بين رجل وامرأة، صغير وكبير، وهذا ما تراءى لابن المعطل (رضوان الله عليه) حين أصبح عند منزل أم المؤمنين (رضوان الله عليها)، عنده وليس فيه، والتنكير في (إنسان) يؤكد معنى الشيوع، والجهالة في تمييز من رآه صفوان (ﷺ).

وأما قولها : فعرفني حين رآني ، فهو معطوف على ما سبقه بالفاء، وهو بهذا العطف يحدث خلطا في الإدراك؛ لأن رؤية سواد إنسان لا يمكن معها تمييز نوعه فضلا عن تحديد شخصه، فكيف تقول : فعرفني ، مما يعني أن حذفًا ما وقع في بنية النص ، وهذا الحذف قد نص عليه في رواية مسلم، فعنده: (فأتاني فعرفني حين رآني) بترتب المعرفة على الإتيان، وليس على رؤية سواد إنسان كما في رواية البخاري، وتقييد المعرفة بوقت الرؤية في قولها: (حين رآني) يعني أن سابق معرفة وقعت بين صفوان بن المعطل (رضي الله عنه) وأم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها، أهّلته أن يميزها، وهذا ما يؤكده قولها : (وكان رآني قبل الحجاب)، وترمي هذه الجمل إلى حدوث تكشف لوجهها (رضي الله عنها) حين نامت ـ كما ذكر ابن حجر (رحمه الله)[1].

والمهم أن جملة (وكان رآني قبل الحجاب) معطوفة على جملة (حين رآني) ومتعلقة بقولها: (فعرفني) وكأن سبب تلك المعرفة الحادثة هو رؤيته لها قبل فرض الحجاب ، فأصل الكلام (فعرفني حين رآني لأنه كان رآني قبل

(١) فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٢ .

الحجاب) ولكن مجيئها على هذا النمط يكسب جملة السبب استقلالًا وتمييزا عن الجملة المسببة عنها، ويجعلها أقرب إلى الحال منها إلى السبب، واقترانها بالواو يعطيها قدرًا من التمايز يمكن المتلقي من الوقوف عليها، وتأملها في ذاتها مستقلةً عما قبلها، مما يعكس قدر ذلك الصحابي الجليل صفوان ابن المعطل (رضي الله عنه)، ومدى ما كان يحظى به من قرب من بيت النبوة، وهو ما صرح به هذا الحديث، من أن رسول الله (ﷺ) لا يعلم عليه إلا خيرًا، ولا يدخل على أهله إلا معه .

وعند مسلم: (وقد رآني قبل أن يضرب الحجاب عليّ) بتوكيد الجملة بـ (قد)، لتؤكد على سبب معرفته لها، ونلمح تخصيص أم المؤمنين لذاتها بالذكر في قولها: (يُضْرَب الحجاب عليّ) مع عموم فرضية الحجاب لسائر نساء المسلمين مبالغةً في التستر، وإظهار العزيمة في الالتزام بحدود الشرع، وكأن كل فرض من فروض الشريعة مخاطب به كل واحد من آحاد المكلفين، وهذا أدعى للالتزام بتلك الفروض وتطبيقها، فالأمر إذا خصّ به واحد كان أحرص على امتثاله من أن يشاع في عموم الناس.

وقد سمّت فرضية الحجاب ضربًا؛ تأكيدًا على شدة إلزام نساء المسلمين عامة بتلك الفريضة، وأزواج النبي (ﷺ) خاصة، وجاء الفعل (يضرب) لما لم يسم فاعله؛ للعلم بالفاعل، وهو رب العزة . ﷻ . فهو فارض الأحكام وموجبها .

أما قولها: (فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني). فهو معطوف على قولها: (فعرفني حين رآني)، والعبارة فيه مبنية على التقديم والتأخير، حيث إن استيقاظها مرتب على استرجاعه، فيكون أصل الكلام: فاسترجع حين عرفني فاستيقظت، والباء في باسترجاعه للسببية[1] فالاستيقاظ مسبب عن الاسترجاع،

(١) الجنى الداني في حروف المعاني . أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي . المتوفى سنة (٧٤٩هـ) . تحقيق : د/فخر الدين قباوة ، أ/محمد نديم فاضل . (دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط: الأولى : ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م) صـ٣٩ . ومغني اللبيب=

واستهلت العبارة به؛ لأنه الأهم والأعنى أن تستيقظ وتغالب عينها التي غلبتها فنامت، وأن تستجمع قواها لتعود إلى تيقظها وانتباهها، كما أن في تقديم الاستيقاظ وعطفه بالفاء دليل على سرعة الاستيقاظ وانبعاث حركته بعد إثارة باعثه من استرجاع صفوان (ﷺ)، فليست العبرة أو الاحتفاء في ذكر الاسترجاع، وإنما المهم هنا هو تيقظها واستعادة نشاطها (رضوان الله عليها).

والاسترجاع: أن يقول المرء: إنا لله وإنا إليه راجعون[1]، وتقييده بالظرف (حين عرفني)؛ لأنه سببه، فسبب الاسترجاع أنه رأى أم المؤمنين (رضي الله عنها) على تلك الحال، فاستعظم أن يحدث ذلك لها، من أجل ذلك استرجع وردّ الأمر كله لله، كمن أصابته مصيبة فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد ذكر شراح الحديث أن استرجاعه (ﷺ) يمكن أن يكون لسببين: الأول: استعظام أن يرى أم المؤمنين في هذا المقام، الثاني: القصد إلى إيقاظها من نومها دون توجيه كلام آخر لها، وهذا من فطنته وحسن أدبه[2]، أو أنه استرجع خوفا مما قد يحصل من خوض الناس في عرض أم المؤمنين.

والفاء في قولها: (فخمّرت) للترتيب من غير مهلة؛ دليل على شدة التحرز والتستر من أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وياء المتكلم في قولها (وجهي وجلبابي) تكشف عن اشتمال أم المؤمنين على نفسها وانكفائها على ذاتها، فهي تلملم كل شيء منها وتستره في هذا المقام.

=عن كتب الأعاريب . أبو محمد جمال الدين ابن هشام الأنصاري المتوفى سنة (٧٦١هـ) . تحقيق : عبد اللطيف محمد الخطيب (المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت . ط :الأولى : ١٤٢١هـ ـ٢٠٠٠م) جـ٢/صـ١٢٧ .

(١) ينظر : فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٣ .

(٢) ينظر : إكمال المعلم بفوائد مسلم : أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض . المتوفى سنة (٥٤٤هـ) . تحقيق : د/ يحي إسماعيل. (دار الوفاء للنشر والطبع والتوزيع . ط : الأولى : ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م) جـ٨/صـ٢٩٤ . وفتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٣ .

ثم جاء قولها (والله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه) اعتراضًا بين ما قبله وما بعده، يعكس مدى عفة ذلك الصحابي الجليل (ﷺ) ويرسم القدر اللازم في التخاطب بين الرجل والمرأة الأجنبية عنه، وهو في هذا الموقف ما استدعى إيقاظها، وقد حصل بالاسترجاع، فلا داعي لما زاد عنه .

والواو الأولى في قولها : (ووالله) لاستئناف معنى جديد وهو ما تحمله جملة القسم من تأكيد يعمل على رفع أدنى شك يمكن أن يحصل في نفوس المتلقين، من أن يكون جرى بينهما فضل حديث على القدر الذي توجبه الضرورة، فضلًا عن أن يتجاذبا أطراف الحديث مما خاض فيه أهل الإفك، وعند مسلم : (ما يكلمني بكلمة) بتسليط النفي على الفعل المضارع المصور لحركات المشهد بكل تفاصيله والمستحضر له بين يدي المتلقي؛ ليرقبه ويشاهده ببصره، ويسمع ما يدور فيه بأذنه.

ولم تكتف أم المؤمنين بنفي أن يكون قد حصل كلام بينهما، بل امتد النفي إلى أن يكون قد وقع من صفوان (ﷺ) غير استرجاعه، فقالت: (ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه) " فإنه قد لا يكلمها ولكن يكلم نفسه أو يجهر بقراءة أو ذكر بحيث يسمعها، فلم يقع منه ذلك، بل استعمل الصمت في تلك الحالة أدبًا وصيانة "[1].

وتنكير (كلمة) وإفرادها في الموضعين السابقين في سياق النفي ليشمل أدنى كلمة، وكل ما يمكن أن يطلق عليه وصف كلمة، وفي هذا من تأكيد نفي وقوع الكلام ما ليس في غيره .

وجملة (وهوى حتى أناخ راحلته) معطوفة على ما قبل قبلها، ومجرى الكلام (فخمرت وجهي بجلبابي، وهوى حتى أناخ راحلته) وجملة القسم بينهما

(١) طرح التثريب في شرح التقريب : أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي. المتوفى سنة (٨٠٦هـ) . وأتمه ولده أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين المتوفى سنة (٨٢٦هـ). (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان. دون تاريخ) جـ٨/صـ٥٤.

فـي قولهـا: (والله مـا تكلمنـا ....) اعتُـرِض بهـا اعتراضًـا ينفـي عـن الأذهـان تصور حصول أي حديث بين أم المؤمنين (رضي الله عنها) وبين صفوان بن المعطل(ﷺ) زائد على قدر الحاجة، إبرازًا لعفة ذلك الصحابي الجليل.

قلت إن زمنًا متطاولًا حصل بين وقوع الحادثة وزمن سردها ، امتد هذا الزمن إلى ما بعد وفاة صفوان (ﷺ) شهيدًا في سبيل الله، وكان ذلك في خلافة عمر (ﷺ) سنة تسع عشرة ، وقيل بل عاش إلى سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية[1]، وكانت حادثة الإفك في غزوة بني المصطلق أو المريسيع ـ كما تسميها كتب السيرة ـ وكان ذلك سنة خمس على الراجح، فبين زمن وقوع الحادثة وزمن سردها مدة ليست قصيرة، ولكن لا تزال زفرات الهمّ وأنّات الألم تعتمل في صدرها (رضي الله عنها) عند استحضار مشاهد تلك الحادثة، ونرى أمارات هذا الهمّ على حروف المدّ المتناثرة بين معاطف الكلام في مثل قولها: (وهوى حتى أناخ راحلته)، وهل تراها حين اختارت تلك المفردة (هوى) كانت ترمز من بعيد إلى أن سقوطًا ما سوف يحدث بتنقلها من مكانها في صحبة صفوان (ﷺ)، وأن زلزلة ما سوف تحدث في المجتمع المسلم، ويهلك من يهلك، ويسقط من يسقط في شأنها، لا نستبعد ذلك طالما أن النص يحتمله.

ونعاود النظر ثانية في (هوى) وأخواتها التي أطلق فيها حرف المد الألف العنان للمتكلم لإفراغ شحنات الألم ورسم تباطؤ الزمان وتثاقله على نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها)، والرغبة في الانتقال من هذا الموضع الموحش واللحاق بالركب المبارك الذين خصتهم بالذكر في قولها: ليس منهم داع ولا مجيب.

وما أن أناخ صفوان (ﷺ) راحلته حتى أسرع بوضع قدمه على يدها؛ تثبيتًا لها حتى تمتطيها أم المؤمنين، فالعطف بالفاء بين تلك الجمل: (فوطئ

(١) ينظر : سير أعلام النبلاء . شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . المتوفى سنة (٧٤٨هـ) . تحقيق : شعيب الأرناؤوط (مؤسسة الرسالة . ط : الثالثة : ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) جـ٢/صـ٥٥٠ ، وفتح الباري : جـ٨/صـ٤٦١ .

على يدها، فقمت إليها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش) يعكس الرغبة المتسارعة في طيّ زمن الأحداث، وشدة التلهف في اللحاق بالجيش.

ولفظة القيام ذاتها في قولها: (فقمت) تعكس شدة التهيؤ والتجلد في الانتقال من تلك البقعة، ولقد راعى ذلك الصحابي الجليل حالة التهيؤ هذه من أم المؤمنين، ورغبتها في اللحاق بجيشها (فانطلق) فناسبت تلك اللفظة . في الدلالة على سرعة المضي نحو الغاية المقصودة . لفظة القيام وما فيها من قوة العزم في تحصيل المقصود وشدة التهيؤ له.

ولا يزال تصوير الأحداث ماثلًا في كلام أم المؤمنين (رضي الله عنها) عن طريق الفعل المضارع (يقود) مستحضرةً من خلاله مشهد قيادة صفوان (ﷺ) الراحلة، لا يكلمها بكلمة ولا تسمع منه كلمة غير التي سمعتها عند استرجاعه.

وإعادة ذكر الراحلة بالاسم الظاهر في قولها: (يقود بي الراحلة) بعد الإشارة إليها بالضمير (فوطئ على يدها، فقمت إليها، فركبتها)، ثم تسليط الفعل على الجار والمجرور (يقود بي) وتقديمه على المفعول (الراحلة) يعني أن إحساسًا مغايرًا قد حدث تجاه تلك الراحلة، استوجب أن يتخذ التعبير هذا النمط، وكان الظاهر أن تقول: يقودها بي، ولكن عمدت إلى ما ذكرت من تقديم الجار والمجرور ووضع الاسم الظاهر موضع الضمير عقب الجار والمجرور؛ لإبراز قوة سببيتها (رضي الله عنها) في تلك القيادة، وأنها هي الممثلة لبؤرة الأحداث، وخاصة من بداية هذا المشهد، وبيان قوة سببية تلك الراحلة في إلحاق أم المؤمنين (رضي الله عنها) بالجيش.

وأما قولها : (حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة) فقد عكست فيه (حتى) التي هي لانتهاء الغاية[1] بتثاقل النطق بها شيئًا من طمأنينة

(١) ينظر: الجنى الداني : ٥٤٢.

النفس حين بلغت مقصدها، فامتداد الصوت بها في هذا المقام يشبه إلى حد كبير تلك الزفرة التي تخرج من صدر المجهد حين يبلغ راحته، والراكض حين يبلغ منتهاه، وكذلك المدّ في (أتينا)، إضافة إلى سهولة مخرجها على اللسان، وسلاسة وقعها في الآذان، مما يلائم هدوء الروح المصاحب للاقتراب من الجيش.

وقولها: (موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول) جملتان حاليتان، اتصلت الأولى منهما بالفعل قبلها من غير عاطف؛ دليلًا على قوة التصاقها به، ونحر الظهيرة: أولها، جاء التعبير به على سبيل الاستعارة " وكأن الشمس لما بلغت غايتها في الارتفاع كأنها وصلت إلى النحر الذي هو أعلى الصدر "[1]، وموغرين: أي مهجّرين، وغرة الهاجرة: شدة الحرّ حين تكون الشمس في وسط السماء، وهو من إيغار الماء: وهو تسخين الحجارة ثم إلقائها في الماء لتسخينه[2]، وكأن الشمس هي تلك الحجارة التي ألقيت في نحر الظهيرة فأكسبتها شدة الحرارة، وهذه الحال متعلقة بإتيان أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) وصفوان، فهو إتيان هذا حاله، وقولها: (وهم نزول) حال ثانية ولكنها متعلقة بالجيش، والتقدير: أتيناهم وهم على تلك الحال، وقولها: (نزول) يعني أنهم أعدوا لأنفسهم منازل يتخذونها تقيهم حر الظهيرة، وتلك صورة مقابلة لحال أم المؤمنين (رضي الله عنها) نقف من خلالها على تباين الحالين، الأمر الذي يعكس معاناتها (رضوان الله عليها) في تلك الحادثة، والتي لا تزال تتجرع مرارتها، واستحضر قولها: وظننت أن القوم سيفقدونني؛ لتزداد صورة التقابل وضوحًا وبيانًا .

---

(١) فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٨ .

(٢) ينظر : تاج العروس . مادة (و غ ر) ، والتوضيح شرح الجامع الصحيح . ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي الشافعي المصري. المتوفى سنة (٨٠٤هـ) . تحقيق : دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث . (دار النوادر ـ دمشق سوريا ط: الأولى : ١٤٢٩هـ . ٢٠٠٨م) جـ١٦/صـ٥٧٦

ثم ينتقل الحديث إلى سرد مشاهد أخرى تمثل بداية تعرض أهل الإفك لها وقولهم في أم المؤمنين ما قالوا، وما ترتب على ذلك من أحداث، فتقول (رضي الله عنها):

" **فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ، فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، وَقَالَ عُرْوَةُ . أَيْضًا.: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فِي نَاسٍ آخَرِينَ لاَ عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ الَّذِي قَالَ: فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ "**

الفاء في قولها : (فهلك من هلك) جاءت ترصد حركة أهل الإفك وموقفهم، فقد انطلقت ألسنتهم مباشرة عقب إتيان أم المؤمنين (رضي الله عنها) مع صفوان الجيشَ موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول، تنال تلك الألسنة من عرضها الشريف (رضي الله عنها)، والملاحظ هنا هو التعبير عما وقع من أهل الإفك بما صار لهم، فعبرت بالجزاء وأرادت الفعل الذي استوجبه، على سبيل التجوز، من باب تسمية السبب باسم المسبب[1]، والغرض منه بيان ما استوجبوه لأنفسهم جرّاء أفعالهم، من أقرب طريق وأوجزه؛ لتعلقه ببيت النبوة وهم منه براء، وهذا ما لفتت إليه رواية مسلم، ففيها: فهلك من هلك في شأني، فنصّ فيها على شأن أم المؤمنين (رضي الله عنها)؛ تبشيعًا لهذا الجرم، وتشنيعًا على فاعله، فالهلاك مسبب عن الكذب والبهتان الذي قالوه، ثم تستأنف أم المؤمنين (رضي الله عنها) كلامًا مؤسسًا على الكلام الأول فتقول (رضوان الله عليها): (وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله

(١) ينظر : الإيضاح : ٢٠٨ .

بن أبي ابن سلول)، وكِبْرُ الشيء: معظمه[1] فالذي تولى معظم الإفك عبد الله بن أبي، وقد بين عروة بن الزبير ـ راوي الحديث ـ (ﷺ) المقصود بالكبر بقوله: (أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده، فيقره ويستمعه ويستوشيه).

و(تولّى) من الولاية، ومن معانيها الفعل والتدبير والقدرة[2]، فيكون ابن سلول هو من تزعم هذا الأمر ودبره وجمع أشتاته، أو من التولّي، وهو الانصراف والرجوع[3]، فيكون المعنى أن من رجع وحصل معظم وزر الإفك وإثمه عبد الله ابن أبي، وعلى الأول يكون كلام عروة تفسيرًا لقولها: تولى كبر الإفك، وعلى الثاني يكون كلامه (ﷺ) بيانًا لسبب قولها (رضي الله عنها).

والإفك: الكذب، وقلب الحقائق وصرفها عن وجهها، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ النجم: ٥٣، وهي مدائن لوط (عليه السلام)، سميت بذلك لانقلابها بالخسف[4]، وسمي حديث الإفك بهذا الاسم؛ تنبيهًا على كذبه وافترائه، وقلب أهله للحقائق، وقد أورد القرآن تلك التسمية، وسمته أم المؤمنين له بهذا الاسم جريًا على ما سماه القرآن به، وللمعنى الذي يحمله.

وعبد الله بن أبي، هو رأس المنافقين، وكان ابنه عبد الله من أفاضل الصحابة (رضوان الله عليهم)، وسلول امرأة من خزاعة، هي أم عبد الله بن أبي، فـ (ابن سلول) صفة لعبد الله، وليست صفة لأبي؛ ولهذا يكتب بالألف؛ تمييزًا له عن التي تكون صفة لما قبلها، وهنا تتجلى فائدة الرسم أو الخط

---

(١) تاج العروس: مادة (ك ب ر)

(٢) لسان العربي . مادة (ولي)

(٣) السابق : المادة ذاتها .

(٤) ينظر : لسان العرب . مادة (أفك) ، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري . المتوفى سنة (٥٣٨هـ) تحقيق : الشيخ /عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ /علي محمد معوض. (مكتبة العبيكان ــ الرياض . ط : الأولى : ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م) جـ٥/صـ٦٤٩ .

باعتباره طريقًا من طرق الدلالة على المعاني التي ذكرها الجاحظ [1]، فمن فطنة أهل هذا اللسان أن جعلوا الألف هنا دليلًا على أن سلولَ وصف لعبد الله وليس وصفًا لأبيّ، وأهل هذا الطبع هم الذين رسموا كتاب الله (ﷻ) وكتبوا (امرأة) مرة بتاء مقبوضة وأخرى بتاء مبسوطة ، وكذلك (شجرة، ورحمة، ونعمة)، وغيرها من الكلمات التي رسمت في بعض المواقع على هيئة مخصوصة، ثم خولف الرسم في مواضع أخرى لذات الكلمات، وأنا هنا لا أتحدث عن مسألة التوقيف للرسم القرآني من عدمها، وإنما أشير إلى فطنة أهل هذا اللسان، وكتبة مفرداته، وكيف اتخذوا من وضع الألف في ابن سلول مفتاحًا للكشف عن مقاصد عناها المتكلم، لا تتكشف إلا عن طريق زيادة هذه الألف، فخالف الرسم هنا مراعاة لتلك المعاني التي تحملها اللفظة هنا ولا تحملها إذا رسمت من غير ألف.

ولنترك هذه المسألة التي كانت الألف في ابن سلول مفتاحًا لها، ولنعد إلى رواية البخاري التي ذكرت كلام عروة معترضًا بين كلام عائشة (رضوان الله عليها) وكان الغرض منه بيان من قصدتهم أم المؤمنين (رضي الله عنها) بقولها: (فهلك من هلك)، وحصر ما يمكن حصره من تلك العصبة التي جاءت بالإفك وخاضت فيه، فكلام عروة متولد من قول أم المؤمنين: (فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول).

وقول عروة (رضي الله عنه): (أخبرت أنه كان يشاع عنده ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه) بني فيه فعل الإخبار على ما لم يسم فاعله، وذلك لصرف العناية إلى الخبر، والضمير في (إنه) راجع إلى ابن سلول، وشيوع الحديث: ذيوعه وانتشاره، وبناء شاع وتحدث للمجهول أمارة على التهوين من شأن فاعله، فهو فاعل لا يعبأ بذكره، ولا يجب أن يجري له على اللسان ذكر؛

(١) ينظر : البيان والتبيين . عمرو بن بحر بن محبوب المعروف بالجاحظ .المتوفى سنة (٢٥٥هـ) . (دار ومكتبة الهلال ـ بيروت . ١٤٢٣هـ) جـ١/صـ٨٢ .

لخزي ما فعل، والضمير في (به و يقره ويستمعه ويستوشيه) راجع إلى الإفك، وفي (عنده) راجع إلى ابن سلول، وفي التعبير عن الإفك وعمن كان يشاع عنده بالضمير دون الاسم الظاهر مع بُعد ما يعود إليه الضمير حفظ للسان من جريان لفظ الإفك عليه، وتهوينًا لشأن من كان يقره ويستمعه ويستوشيه.

والمقصود بالقرّ هنا: صب الكلام في الأذن . كما ذكر ابن الملقن (رحمه الله)[1]، يقال: قرّ القدر يقرها قرًّا: صبّ فيها الماء[2]، وهذا اللفظ استحضر المشهد بلفظه وصيغته، وفرق بين ان تخبر عن المعنى وأن تستحضره، فنحن نرى الآن الآذان أوعية يصب فيها حديث الإفك صبًّا، والمضارع في الأفعال الثلاثة (يقر، يستمع، يستوشي) يعمل على استحضار تلك المشاهد وتصويرها، إضافة إلى دلالته على ديمومة تلك الأفعال واستمرارها، وحركة أصحابها الدؤوبة في نشر هذا الإفك وجمع شتاته.

وقوله: (يستوشيه) هو من أوشى فرسه: إذا ضرب جنبيه بعقبه حثًّا له على الجري[3]، وهذه استعارة أخرى تضاف للاستعارة الأولى في قوله: (يقر)، حيث استعار القرّ، وهو الصبّ، للنقل والإخبار، ثم اشتق منه (يقر) على سبيل الاستعارة التبعية، والجامع هنا يكمن في حرص الناقل على ألا يتفلت من خبره شيء دون أن ينقله، كما يجسد حرص السامع على جمع أطراف الحديث، كالوعاء المستغرق لجميع ما يصب فيه.

والصورة الاستعارية الثانية: في قوله : (يستوشيه)؛ حيث شبه حرص ابن سلول على استخراج الخبر ونشره وذيوعه في الناس والمضي قدُما إلى تحقيق غايته من تشويه صورة بيت النبوة، شبه ذلك بمن يضرب فرسه بعقبه؛ حثًّا له على الجري والمضي إلى غايته، والجامع بينهما يكمن في شدة المسارعة إلى تحقيق المقصود، ثم استعير الاستوشاء للاستخراج، واشتق منه

(١) ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح : جـ٢١/صـ٢٧٨ .
(٢) لسان العرب. مادة (قرر).
(٣) ينظر: لسان العرب . مادة (وشي).

الفعل استوشى بمعنى استخرج، وللاستعارة في هذا المقام موضع حسن، فرأينا من خلالها الكلام شيئًا مصبوبا في الآذان، والآذان أوعية لهذا الكلام، وصورت الحرص على استخراج الأخبار وإشاعتها في صورة الراكب فرسًا يضربه بعقبيه حثًّا له على استنهاضه ومواصلة مسيره، ومن ثم تتمكن هذه المعاني بعد تجسيدها وتصويرها في الذهن فضل تمكن .

وقوله: (ولم يسم من أهل الإفك . أيضا . إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش...) من كلام عروة . أيضا . ينقله عنه ابن شهاب الزهري، وليس من كلام عائشة (رضوان الله عليها)، والمقصود منه . كما ذكرت ـ تفصيل ما أجمله قولها: (فهلك من هلك)، والملاحظ في كلام ابن شهاب، هو تكرار التصريح بذكر عروة في تلك الجمل المعترضة بين كلام عائشة (رضي الله عنها) خاصة؛ وذلك عند تعاظم معنى من المعاني، وقصد اللفت إلى مزيد عناية به، فيقطع الكلام ويستأنف خبر جديد يعاد فيه ذكر اسم عروة (ﷺ).

يقول ابن شهاب: قال عروة: (كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء**

والمقصود من هذا الخبر، هو تخصيص حسان بن ثابت (ﷺ) بمزيد ذكر يظهر من خلاله موقف أم المؤمنين (رضي الله عنها) منه، وهو كونها تكره أن يسبّ عندها لسابقة خير منه .

والمضارع في (تكره) و (يسب) يعني أن ناسًا كانوا ينالون أهل الإفك بالسب؛ تطييبًا لنفس أم المؤمنين (رضي الله عنها) ويتكرر ذلك منهم ، فكانت تكره ذلك وتكرر مقالتها بأنه كان ينافح عن رسول الله (ﷺ) بقوله:

فإن أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء**

والبيت كله جملة واحدة، بنيت على المبتدأ والخبر، فهي مؤكدة باسميتها، وازدادت توكيدًا بدخول حرف التوكيد (إن) عليها؛ تنبيهًا على وكادة

الخبر في نفس منشئه، وتأكيدًا على إثبات براءة أم المؤمنين (رضي الله عنها) عند من يشك فيها، ويتهمها بما خاض فيه أهل الإفك.

ثم يستأنف عروة (ﷺ) خبرًا جديدًا عن أم المؤمنين (رضي الله عنها) تكشف فيه عما كان يدار حولها وهي عنه ذاهلة، وكيف كان وقع كلام الناس على رسول الله (ﷺ) وأثر ذلك في معاملته لها (رضوان الله عليها)، وذلك في قوله:

قالت عائشة: "فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ".

قولها (رضي الله عنها): (فقدمنا المدينة) معطوف على قولها: (فهلك من هلك)، والفاء في (فاشتكيت) ترتب الشكوى على القدوم ترتيبًا من غير مهلة، ولم تبين الأمر الذي اشتكت منه؛ لأن الغرض متوجه إلى إثبات شكايتها دون تعلق بما تشكو منه، (وحين) ظرف زمان، يقيد زمن الشكوى بكونه بعد قدوم المدينة، وهو المفهوم من قولها: (فقدمنا المدينة فاشتكيت ...) فهنا تكرار يوقفنا على مشهد القدوم مرتين، الأولى: حين قدموا جميعًا، والثانية: حين حصلت منها الشكاية، وكأن القدوم الواحد هنا صار قدومين؛ لتباين الحالين فيه، حال عموم الجيش، وحال أم المؤمنين خاصة، وهذا ما يكشف عنه قولها: (والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك).

فللناس بعد قدومهم حال خاص بهم، وهو أنهم يفيضون في قول أصحاب الإفك، ولأم المؤمنين حال خاص بها، وهو أنها لا تشعر بشيء من ذلك.

والإفاضة في الشيء: الإكثار فيه، يقال: فاض الماء والمال إذا كَثُر[1]، والمقصود خوضهم في حديث الإفك، واندفاعهم فيه، وإكثارهم منه، والكلمة مستقاة من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ النور: ١٤، وهذا مظهر من مظاهر أثر لغة القرآن في لغة من نزل فيهم، ومواطن التأثر بلغة القرآن في هذا الحديث كثيرة، وهذا موضع منها.

والمضارع في (يفيضون) يصور هذه الحركة المائجة في الخوض فيما رميت به أم المؤمنين (رضي الله عنها) ويستحضرها أمام عين المتلقي بكل تفاصيلها، وهو هنا الإفك ذاته، ولكنه ورد مضافًا إلى أصحابه في قولها: (في قول أصحاب الإفك)؛ لاعتبارين: الأول: باعتبار القول، الثاني: باعتبار القائل، وهذا أظهر في التشنيع على أصحاب الإفك وأهله؛ لأنه جعله وصفًا لهم، وسمتًا يعرفون به بين الناس، ولم يعد مجرد كلمة خرجت من أفواههم.

وقولها: (لا أشعر بشيء من ذلك) حال، جاءت في رواية البخاري متصلة بما قبلها من غير عاطف؛ لتشكل معه خبرًا واحدًا، فإفاضة الناس في قول أصحاب الإفك مرتبط بعدم شعورها، وعند مسلم جاءت الواو قبل جملة الحال فآذنت باستقلاله عما قبله، وهنا يقف السامع معه مرتين، مرة مع إفاضة الناس، ومرة مع عدم شعورها بما يدار حولها، وهنا يظهر شيء من شدة ما عانته أم المؤمنين (رضي الله عنها) في مأساتها تلك، وتوجيه النفي إلى الشعور يؤكد انقطاع الخبر عنها تمام الانقطاع، فلم يبلغها منه شيء، واسم الإشارة (ذلك) يشير إلى هذا الانفصال والتباعد بين الحديث والمحدث عنهم، فهي بعيدة عن مباشرة فعله وعن سماع خبره.

وجملة (وهو يريبني) معطوفة على جملة (فاشتكيت حين قدمت شهرًا) ومتعلقة بها؛ لأنها تحكي حالها في مرضها، وعادة رسول الله (ﷺ) معها حين

(١) نظر : تاج العروس . مادة (ف ي ض) .

تشتكي، وكيف تغيرت تلك الحال، والضمير (هو) ضمير الشأن والحال؛ لأنه يحكي حالها في هذا الموقف، ولضمير الشأن في الكلام شأن ليس بالخفي ـ كما ذكر شيخنا الدكتور أبو موسى (حفظه الله)ـ "لأنه إبهام ثم بيان، ويورث الكلام بهذا فخامة ونبلًا، ولا يؤتى به إلا في كلام يراد اللفت إلى معناه؛ لأنه له خطر وبال"(١)، وخطر هذا الكلام الذي أريد اللفت إليه يكمن في حال النبي (ﷺ) مع أم المؤمنين (رضي الله عنها) التي اعتادتها منه خاصة حين تشتكي، وهي الآن تفتقدها، ولا تعرف لذلك سببًا، وهي تريد أن تنقل لنا هذا المعنى كما أحست بغربته ووحشته، والتقييد بالجار والمجرور في قولها (يريبني في وجعي) يضاعف هذا الوجع، وكأنه وجع على وجع، ثم يأتي قولها: (أني لا أعرف من رسول الله (ﷺ) اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي) يبين ويوضح الإبهام الذي اكتنف ضمير الشأن، فازداد المعنى تأكيدًا في نفس السامع، وزاد التوكيد توكيدًا بدخول (أن) على الكلام، وكثرة المؤكدات هذه تكشف غرابة الحدث الذي راب أم المؤمنين (رضي الله عنها) وهو غياب اللطف الذي كانت تراه من رسول الله (ﷺ)، ولم تقل: لا أرى، كما قالت: الذي كنت أرى، فجاءت بالمعرفة في جانب النفي، وبالرؤيا في جانب الإثبات؛ لترينا مع نفي اللطف التنكر الذي حلّ محله، وترينا مع إثبات اللطف معاني المودة والرحمة التي كانت تلتمسها من رسوله الله (ﷺ) مشخصة، تراها العيون، مما يكشف عن عظيم هذا اللطف وقوة وضوحه .

وقولها : (إنما يدخل عليّ ...) متصل بما قبله؛ لأنه من تمام الحال التي رابت أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وسوق تلك العبارة في قالب القصر يعني أن نمطًا واحدًا من السلوك تعاطاه رسول الله (ﷺ) معها في مرضها، لم يخالفه، وهو ما نص عليه قولها: (فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم، ثم ينصرف)، فهذه ثلاث جمل ترسم كل واحدة منها شعورًا معيّنًا وموقفًا معيّنًا، الأولى:

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري : صـ٦٧٨ .

قولها: (فيسلم) وهي معطوفة على دخوله ومرتبة عليه ترتيبًا بلا مهلة، ولا يخفى على السامع ما يحدثه الجناس بين قولها (وسلم . فيسلم) من وقع يأسر الآذان، إضافة إلى ما يكشف عنه هذا التجانس من تداخل بين تسليم رسول الله (ﷺ) على أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها)، وسلام الله (ﷻ) على رسوله (ﷺ)، وبيان أن تسليم رسول الله فيض من تسليم الله، فهو رحمة من رحمة (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا) .

وقولها: (ثم يقول: كيف تيكم) يعني أن مدة زمنية تسللت بين زمن التسليم وبين سؤاله (ﷺ)، مدة يسودها صمت محمّل بكثير من المعاني التي رابت أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وجملة: (كيف تيكم) من الكلام النادر، وهي جملة مكتنزة جدًّا تزيد الموقف غموضًا على أم المؤمنين(رضي الله عنها) مما دعاها إلى ذكر الريب ثانية في قولها: (فذلك يريبني)، والإشارة في (ذلك) إلى فعل النبي (ﷺ) السابق من دخوله عليها، ولاكتفاء من الحديث معها بقوله: كيف تيكم .

وتيكم: اسم إشارة للمؤنث مثل ذاكم للمذكر[1]، ومعناه أن النبي(ﷺ) لم يتوجه بالسؤال إليها، وإنما إلى غيرها؛ ومن ثم لم تعبأ أم المؤمنين (رضي الله عنها) بذكر جواب لسؤاله (ﷺ) بقدر ما عناها أن تبين سياق ذلك السؤال ووقعه في نفسها فقالت: (فذلك يريبني، ولا أشعر بالشر).

والشر المذكور في قولها: (ولا أشعر بالشر) هو الشيء المذكور في قولها: (ولا أشعر بشيء)، والتي سبق أن ذكرته، وقد سمته شرًّا هنا لظهور آثاره في تغير حال النبي (ﷺ) معها، مما رابها وزادها وجعًا على وجعها، ويظل هذا الريب مصاحبًا لها حتى تتجلى لها حقيقة ما يدار حولها، في المشهد التالي: والذي يبدأ من قولها: (رضي الله عنها):

---

(١) فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٥ .

"حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا، وَكُنَّا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي البَرِّيَّةِ قِبَلَ الغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ المُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ المُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ"

وأول ما يقع عليه النظر من ألفاظ هذا المقطع هو حروف التضعيف والمدّ في قولها: (حتى خرجت حين نقهت) والتي تعكس ثقل المدة التي اشتكت فيها (رضي الله عنها)، وزاد من ثقل تلك المدة ما رابها من رسول الله (ﷺ)، والمعنى ظللت على تلك الحال حتى خرجت، و(حين نقهت) ظرف للخروج، والنّاقِهْ: الذي أفاق من مرضه ولم تتكامل صحته [1]، فلا تزال أم المؤمنين(رضي الله عنها) تعاني مرضها، وجاء تكرار لفظ الخروج في قولها: (فخرجت مع أم مسطح) لمزيد التنبيه إلى ما حدث في هذا الخروج، وأنه كان مفتاحًا من مفاتيح الشر حين وقفت خلاله على ما يقوله أهل الإفك .

وقولها: (قبل المناصع، وكان متبرزنا) من الكنايات اللطيفة عن المعاني التي يتجنب التصريح بها، والمقصود به قضاء الحاجة، وقولها: (وكنا لا نخرج إلا ليلًا) إشارة إلى عادة النساء في ذلك الزمان في قضاء حاجتهن، وهذا مستوى رفيع في تتبع سياقات الحادثة زمانا ومكانًا، وذكر تفاصيل ليست بعيدة عن أصل الحدث وإن كانت لا تدخل في صلبه، والقصد من ذلك هو

(١) لسان العرب . مادة (نقه).

إشباع المعنى وإيقاف المتلقي على جزئيات النص حتى تتضح له صورة الأحداث في أجلّ معانيها وكافة ظلالها.

أما مجيء جملة (وكنا لا نخرج إلا ليلًا) على أسلوب القصر، واختيار طريق النفي له، فيعني أن هناك احتشادًا في ذكر هذا الخبر، وأن شائبة إنكار حقيقية أو تقديرية تعتري حال السامع اقتضت هذا الوجه من التوكيد، فخروج النساء وخاصة نساء النبي (ﷺ) إلى موضع بعيد عن بيوت الناس وأحيائهم أمر تستعظمه النفس، فناسب مجيئ الخبر على هذا الوجه من التوكيد، فقصرت الخروج على كونه ليلًا، لكونه أدعى للحفظ والتستر، وليس المقصود مطلق الخروج، وإنما الذي كان لقضاء الحاجة، وطرحه من العبارة جاء تحاشيًا لذكره بعد الكناية عنه في قولها: وكان متبرزنا.

ثم تستطرد أم المؤمنين (رضي الله عنها) في وصف ما كان عليه العرب فيما يتعلق بقضاء الحاجة، فتقول (رضي الله عنها): (وأمرنا أمر العرب الأُوَل في البرية قِبَل الغائط) والأُوَل بتخفيف الواو صفة للعرب، والمقصود بالأمر: شأنهم وما كان عليه حالهم، وقولها: (في البرية قبل الغائط) تخصيص لتلك الحال من بين سائر أحوالهم، وعند مسلم (في التنزه) والمقصود قضاء الحاجة في الخلاء، وقولها: (وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا) من عطف العلة على المعلول؛ لمزيد خصوصية في تلك العلة، استوجبت تميزها في نفس المتكلم، وهذا كله من بيان أحوال الأشخاص الذين تدور حولهم أحداث تلك القصة، وما يمكن أن يكون له من أثر في مجريات الأحداث.

ثم يعود بنا الحديث ثانية إلى وقت خروجها مع أم مسطح، بعد تلك التطوافة في أحوال العرب، فتقول (رضي الله عنها): (فانطلقت أنا وام مسطح). وانطلقت غير فخرجت مع أم مسطح، ومخالفة التعبير قد يكون مقصودها المسارعة إلى ذكر الأحداث والعودة بها إلى نقطة الخروج، وربط ذهن المتلقي بهذه الجزئية من الحدث، والتخفف مما تفرع عنها من ذكر أحوال

العرب وعادات نسائها، وفي تلك الجملة يختفي التصريح بلفظ المعية الذي ورد في الجملة الأولى (مع أم مسطح)، فلم تقل فانطلقت مع أم مسطح، وإنما فانطلقت أنا وأم مسطح، بإبراز ضمير التكلم (أنا)، ونلمح وراءه رغبة في التخلص من الشعور بالإعياء، وإظهار نوع من التعافي يسوّغ الاعتماد على الذات وإبرازها في سياق الكلام، وهذا شعور آخر وإن كان الموقف واحدًا، وكأن أم المؤمنين (رضي الله عنها) تهيء الأسماع لاستقبال خبر ما وثيق الصلة بذاتها، وتتخذ من وسائل التعبير دليلًا على ترقب حصول ما يفاجئ الأسماع .

ثم تأخذ أم المؤمنين (رضي الله عنها) في تفريع الحديث عن أم مسطح؛ لتجعل من قولها: (فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع) أصلا لفرعين، الأول: يتعلق بالمناصع، وهو المكان الذي خرجتا إليه، والثاني: يتعلق بأم مسطح، فتذكر نسبها من قبل أبيها وأمها، وتذكر نسب ولدها؛ لتبرز للمخاطب مكانة تلك المرأة منها، أما نسبها من قبل أبيها، فهي ابنة أبي رُهم، واسمه: أُنيس بن عبد المطلب بن عبد مناف، والمطلب: هو أخو هاشم بن عبد مناف، تولّى السقاية من بعد أخيه هاشم، وكان ذا شرف في قومه وفضل، وكانت قريش تسميه الفيض؛ لسماحته وفضله، وهاشم هو أبو عبد المطلب، واسم عبد المطلب: شيبة، وإنما سمي بهذا الاسم؛ لأن عمه المطلب لما استقدمه من عند أهل أمه أردفه خلفه، ودخل به مكة ظن الناس أنه عبدٌ له، فقالوا: عبد المطلب، وعبد المطلب هو جد النبي(ﷺ)، أذكر هذا؛ لأن أم المؤمنين حين أخبرت عن أم مسطح بإثبات نسبها فقالت: (وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف) لا يبعد أن تكون قد أرادت أن تلفتنا إلى أصالة هذا النسب وعراقته، واتصاله بهذا النسب الشريف، نسب النبي(ﷺ)، وكانت أم مسطح وولدها من المهاجرين الأولين، أما نسبها من جهة أمها، فأمها بنت صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، وكانت أم مسطح تسمى باسم خالتها أم بي بكر (رضي الله عنها)، فكان اسمها سلمى، فهي من عائشة من أولى

أرحامها، وابنها مسطح بن أُثاثة بن عباد بن المطلب، واسمه: عوف، وقيل: عامر، والأول هو المعتمد، فهو مطلبيٌّ من قبل أبيه وأمه، فهو . أيضا. يتصل بهذا النسب الشريف، وكان أبو بكر (ﷺ) يصل أم مسطح وولدها؛ لقاربتهما منه(١).

والفاء في قولها: (فأقبلت أنا وأم مسطح) تطوي هذه التفريعات في الحديث وترجع بنا إلى أصل الحادثة، وتعكس وقع تسارع الأحداث على نفس أم المؤمنين، وقولها: (حين فرغنا من شأننا) كناية عما يستهجن التصريح به، وقولها: (فعثرت أم مسطح في مِرْطها) معطوف على ما قبله، وعطفه بالفاء أمارة على تسارع الأحداث وتآكل الزمان وقبضه في مواقف القلق والاضطراب، ولا نغفل في هذا السياق دلالة التكرار لاسم مسطح في أكثر من موضع؛ لما لكلامه من أثر في مجريات الأحداث.

ودعاء أم مسطح على مسطح بالتعس مرتب على تعثرها ومتولد منه؛ ولذا جاء قولها: (فقالت: تعس مسطح)، معطوفًا بالفاء على قولها: (فعثرت ...)، وبين خصوص هذا الدعاء وتعثر أم مسطح مناسبة واضحة، فمن معاني التعس: التعثر، وألا ينتعش العاثر من عثرته(٢)، وقد جاءت جملة الدعاء في قالب الخبر لتشي بشيء من كمال الرغبة في حصول ما يدعو به الداعي، وذلك لتعلق الأمر بعرض النبي(ﷺ)، فالدعاء عليه بخصوص هذا الدعاء في هذا المقام يعني أن أم مسطح قد ربطت بين تعثرها في مرطها وبين ما تحدث به ولدها، وجعلته سببًا لهذا التعثر، وهذا شأن المعصية، أن تكون وبالًا على صاحبها، وكان من سلفنا الصالح من يخبر أنه يرى أثر

(١) انظر: سيرة ابن هشام . جـ١/صـ١٣٧. وفتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٥ .
(٢) لسان العرب. مادة (تعس).

معصيته في خلق دابته وخادمه[١]، ومن ثم جعلت دعاءها عليه من جنس ما حصل لها، الأمر الذي حمل أم المؤمنين (رضي الله عنها) بسلامة صدرها، ونقاء سريرتها وورعها على أن تنكر مقالة أم مسطح بقولها: (بئس ما تقولين. أتسبين رجلًا شهد بدرًا؟) ، مصدرة كلامها بأسلوب الذم، مختارة له (بئس) التي هي موضوعة للذم التام، وأصلها: بَئِسَ، أي: أصاب بؤسًا، ثم انتقلت من الدلالة على المعنى إلى إنشاء الذم على سبيل المبالغة [٢]، و(ما) اسم موصول، يكشف في هذا المقام عن هول جملة الصلة وعظمتها، والمقصود به ما قالته أم مسطح في ولدها وسبّها له، وبيان أن هذا القول قد بلغ من الذم مبلغًا تعجز العبارة الصريحة عن الإحاطة به .

وجاء الاستفهام في قولها: (أتسبين رجلًا ...) مشحونًا بالتعجب والإنكار مما قالته أم مسطح، ثم شفع هذا الاستفهام التعجبي الإنكاري بما يؤجج من معنى التعجب والإنكار، وذلك في قولها: (شهد بدرًا)، ومعلوم أن شهود المسلم بدرًا مظنة لمغفرة الله (ﷻ) وشمول رحمته له، وهذا مفاد من قوله (ﷺ): " لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"[٣]، والتنكير في قولها (رجلًا) يكشف عن عظمة هؤلاء الرجال وعلوّ كعبهم في صفحة الزمان بشهودهم تلك المعركة، وما استوجبوه لأنفسهم من فضل الله عليهم بالمغفرة والرحمة.

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم . المتوفى سنة (٦٨١هـ) . تحقيق : إحسان عباس (دار صادر ـ بيروت. ط: الأولى: ١٩٧١م) جـ٤/صـ٤٨.والخبر في الفضيل بن عياض (رحمه الله)

(٢) شرح التصريح على التوضيح . زين الدين خالد بن عبد الله بن أبي بكر الأزهري . المتوفى سنة (٩٠٥هـ). (دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان . ط : الأولى: ١٤٢٠هـ . ٢٠٠٠م) جـ٢/صـ٧٦ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير . باب الجاسوس . حديث رقم ٣٠٠٧ .

وجملة (شهد بدرًا) واقعة موقع الحال، وهي موضع النظر، ومحل الفخر، ومنبع التعجب والإنكار من أَن يسب صاحبها، واتصال تلك الحال بصاحبها من غير فاصل يعني أنها محل الفخر لصاحبها، وأنه لم يستمد شرفه إلا منها، وعند مسلم (قد شهد بدرًا) بدخول حرف التحقيق عليها؛ تأكيدًا على كونها محل الفخار لأهلها، وموضع التعجب والإنكار.

(فقالت)، أي: أم مسطح، وعطف القول بالفاء هنا يعني تولده مما قبله وترتبه عليه وعند مسلم: (قالت) من غير عاطف؛ جوابًا عن السؤال الصريح قبله، و(أي) في قولها: (أي هنتاه) حرف نداء، موضوع لنداء البعيد، وقد كانت أم المؤمنين (رضي الله عنها) ذاهلة عما يدار حولها، لا تشعر منه بشيء، فنزلت تلك الغفلة منزلة البعد المكاني، وفي الإشارة إليها بقولها: (هَنْتَاه) دليل على هذه الغفلة، ومن معانيها: (بُلْهى)[1]، قال ابن حجر (رحمه الله) " أي حرف نداء للبعيد، وقد يستعمل للقريب، حيث ينزل منه منزلة البعيد، والنكتة فيه هنا أن أم مسطح نسبت عائشة إلى الغفلة عما قيل فيها؛ لإنكارها سبَّ مسطح، فخاطبتها خطاب البعيد، وهنتاه: بفتح الهاء، وسكون النون وقد تفتح... أي: هذه، وقيل امرأة بُلْهَى، كأنها نسبتها إلى قلة المعرفة بمكان الناس، وهذه اللفظة تختص بالنداء، وهي عبارة عن كل نكرة "[2]، ثم إن وقع كلمة (هنتاه) في السمع بما فيها من حروف همس (الهاء والتاء والألف)[3] يكشف عن غفلتها عما يدار حولها، ودقة وخفاء هذا الكلام.

وجملة (ولم تسمعي ما قال؟) جملة استفهامية، حذف منها أداة الاستفهام، والواو عاطفة على مقدر يمكن أن نتلمسه من سياق الكلام بما

---

(١) لسان العرب . مادة (هنا)

(٢) فتح الباري: جـ٨/صـ٤٦٦.

(٣) شرح شافية ابن الحاجب . ركن الدين حسن بن محمد بن شرف شاه. المتوفى سنة (٧١٥هـ). تحقيق: د/ عبد المقصود محمد عبد المقصود (مكتبة الثقافة الدينية . ط: الأولى: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م) جـ٢/صـ٩٢٦ .

يلائم تلك الغفلة، فيكون تقديره: أغفلت ولم تسمعي ...؟ والاستفهام هنا مشوب بالتعجب، فهو تعجب لتعجب وإنكار لإنكار، والتخفف من ذكر أداة الاستفهام هنا وما دخلت عليه القصد منه المسارعة إلى ذكر المقصود من إيقاف أم المؤمنين وإخبارها بما هي عنه غافلة.

واسم الموصول في قولها: (ما قال) يكشف ـ أيضا ـ عن هول تلك المقالة التي قالها مسطح واستوجبت دعاء أمه عليه بما ذكرته من التعس، وقابلت بذلك بين استعظام أم المؤمنين لدعائها على من شهد بدرًا وبين ما تلفظ به، وكأن المعنى: إن كنتِ تستعظمين مقالتي فيه ، فانظري إلى عظم ما قاله فيكِ .

وقول أم المؤمنين (رضي الله عنها): (وقلت: ما قال؟) جواب لقول أم مسطح: ولم تسمعي ما قال، وكان حق هذا الجواب أن يأتي من غير عاطف؛ لاتصال الجواب بالسؤال اتصالًا ذاتيًا لا يُحتاج معه إلى واسطة، ولكنه جاء في رواية البخاري معطوفًا بالواو؛ لترسم هذه الواو عواطف وانفعالات تموج في نفس المتكلم، قبل أن يلقي سؤاله الذي هو جواب عن سؤال سابق، فالموقف هنا بلغ من تعاظمه وشدة تركيزه الحد الذي تطرح فيه العبارات والجمل، ويكتفى فيه باللفظة الدالة والإشارة الموحية، وكان طرح أداة الاستفهام وحذف المعطوف عليه في كلام أم مسطح مظهرًا من مظاهر هذا التركيز . أيضا . .

وجاء قولها: (فأخبرتني بقول أهل الإفك) يمثل تحولًا في أولويات التلقي، وذلك بالمسارعة إلى ذكر مقالة أهل الإفك دون عناية بناقل تلك المقالة، فلم يعد الكلام متعلقًا بالرجل الذي شهد بدرًا، ولا باستعظام أن يُدْعَى عليه بالتعاسة، وإنما بالكلام الذي قيل والخبر الذي يشاع ويتناقله أهل الإفك فيما بينهم، ومن ثم قالت: فأخبرتني بقول ... فالعناية متجهة إلى تحقيق هذا القول، دون نظر لقائل بعينه.

ونسبة القول إلى أهل الإفك يعني إثبات كذبه في ذاته من أول الأمر، وأنه لا يتجاوز في مطابقته للواقع أفواه قائليه وناقليه، وهم تلك العصبة التي

هلكت في شأن أم المؤمنين (رضي الله عنها). وهذا المعنى المستفاد من قوله . تعالى . : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ النور: ١٥.

ثم تبدأ مرحلة أخرى من معاناة أم المؤمنين (رضي الله عنها) إثر تلقيها هذا الخبر ووقوفها على حقيقة ما يقوله أهل الإفك.

فتقول (رضي الله عنها): " **فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)**".

الفاء في قولها : (فازددت) توقفنا على تفجر الإحساس بزيادة المرض عقب علمها بما يقوله أهل الإفك مباشرة، وتبين لنا هذه الفاء وقع سماع ما يُسيء الظن وينال من الأعراض على كل نفس زكية عفيفة، وكان يمكن أن تقوله فزاد مرضي ... ولكنها أرادت أن تكشف عن الإحساس بحصول مرض غير الذي كانت تجده، مرض تشعر بألمه دون أن تدرك كنهه، مرض مغاير لما يتعارفه الناس، أقول هذا لأن التنكير في مرض يشي بشيء من ذلك، وصيغة الاستعلاء (على مرض) تخبرنا بتعاظم المرض الذي ألمّ بها، واستعلائه على كل مرض، فلم يعد لما كانت تشكو منه شهرًا، لم يعد له بعد هذا الخبر أثر، إذ حل محله مرض جديد، فاقه ألما وبؤسًا، وعند مسلم : (فازددت مرضا إلى مرضي)، وهنا نرى المرضين معا ، العضوي الذي اشتكت منه شهرًا، والنفسي الذي حصل لها بعد ما أخبرتها أم مسطح بقول أهل الإفك.

وانظر إلى تثاقل النطق وامتداد الصوت في قولها: (فلمّا رجعت إلى بيتي) وما يعكسه هذا التثاقل من شدة وقع ما سمعته على نفسها، وهذا ما يشعر به كل مكلوم حين يصاب في عرضه وشرفه، فتثاقل النطق بالحرف المشدد وامتداد الصوت في حروف اللين يظهر منه شدة الموقف على أم المؤمنين (رضي الله عنها) والشعور بتباطؤ الزمان حتى يكاد يقف وتنقطع

الحياة عند هذا القدر من المعاناة التي يجدها الأطهار الأبرار حين تطالهم ألسنة الفجار كأمثال ابن سلول، وهو الذي نزل فيه قول الله (ﷻ): ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ النور: ٣٣. فقد كان قوّادًا يكره جواريه على الزنا لضريبة يأخذها منهم(١).

وقولها: (دخل عليّ رسول الله (ﷺ) فسلّم ...) جواب لـ (لما) التي فيها معنى الشرط(٢)، وعند مسلم (فدخل) عطفًا على محذوف قدره ابن حجر (رحمه الله) بقوله: " فلما دخلت بيتي اسْتَقْرَيْتُ فيه"(٣)، وجملة : دخل عليّ رسول الله (ﷺ) فسلم ثم قال : "كيف تيكم " هي ذاتها جملة: إنما يدخل عليّ رسول الله (ﷺ) فيسلم، ثم يقول: "كيف تيكم" التي وردت في الكلام السابق، والمعنى أن حال النبي (ﷺ) معها ظل كما هو عليه لم يتغير، وأن فترة الجفاء وغياب اللطف الذي كانت تراه منه من قبل كما هي عليه .

وقولها: (فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟) معطوف على ما قبله من قول رسول الله (ﷺ): " كيف تيكم "، ومتولد منه، وليس جوابًا لما فيه من سؤال، مما يعني طرح الجواب من الذكر، والمسارعة إلى الاستئذان من النبي (ﷺ)، الأمر الذي يشير إلى شدة الموقف وضغطه واكتنازه، واحتدام معاني الألم والانكسار في النفس التي نلحظها في أسلوب الاستفهام في قولها: (أتأذن لي أن آتي...) وفي حرف الياء في (لي و آتي) .

وجملة : (وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما) واقعة موقع الحال لجملة (آتي أبوي)، وعند مسلم : (وأنا حينئذ أريد ...) ففيها مزيد من الاحتشاد والتوكيد، وعطف جملة الحال في الروايتين بالواو يكشف عن قصد المتكلم

---

(١) أسباب نزول القرآن الكريم . أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي . المتوفى سنة (٤٦٨هـ) . تحقيق : كمال بسيوني زغلول (دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط: الأولى : ١٤١١هـ) صـ٣٣٦ .

(٢) ينظر : الجنى الداني : ٥٩٤ .

(٣) فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٦.

بتمايز المعنى الذي تحمله جملة الحال، والقصد إلى جعل تلك الجملة خبرًا مستقلًا يستوجب الوقوف عنده؛ لأهميته في سياق الكلام .

وقولها: (فأذن لي رسول الله (ﷺ)) معطوف على جملة السؤال، وعطفه بالفاء يعني مجيء الإذن عقب طلبه مباشرة من غير مهلة؛ مراعاة منه (ﷺ) لحال أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وما هي عليه من المرض، وقولها: (فقلت لأمي) يعني أن قولها ذلك جاء عقب أذن رسول الله (ﷺ) لها بإتيان أبويها مباشرة، وعند مسلم: (فجئت أبوي، فقلت لأمي) بالنص على المجيء والفصل به بين إذن رسول الله (ﷺ) وبين مقالتها لأمها، وهذا هو الترتيب الطبيعي لمجريات الأحداث، وسقوط المجيء في رواية البخاري يعكس شدة التطلع إلى استيقان الخبر؛ لذا أسقط من الكلام ما يفصل بين الأذن بالإتيان، وبين الغاية من الإتيان، وصرح مباشرة بما قصدت إليه حين استأذنت من رسول الله (ﷺ) أن تأتي أبويها، تريد أن تستيقن الخبر.

وارتقاء في رسم حالة الضعف والانكسار التي اعترت أم المؤمنين عقب إخبار أم مسطح لها بما يقوله أهل الإفك جاء قولها: (يا أمتاه) بما فيه من النداء بياء وما فيها من مد متطاول يعمل على إفراغ ما يعتمل في الصدر من حزن وأسى، وكذلك حرف الألف في أمتاه، ثم الهاء فيه، والتي يكاد مخرجها يلامس القلب، كل ذلك يعكس حالة الانكسار التي تعانيها أم المؤمنين (رضي الله عنها) والتي صاحبت مجيئها هذا .

وقد مهدت بهذا النداء اللافت إلى أهمية ما جاء الكلام من أجله، وهيأت أمها على الإقبال إليها تاركة شواغلها، ثم جاء قولها: (ماذا يتحدث الناس؟) بعد تلك التهيئة، تسأل فيه عن حقيقة ما يخوض الناس فيه، وسمته حديثًا لحداثته، وعدم أصالة خبره، وصياغته في قالب المضارع، يكشف عن شيء من طبائع النفوس حين تستمرئ الحديث في أعراض الناس وتواصله، وتمده وتنميه بالأقوال حتى تتوه فيها الحقائق، ولم تقل هنا ما ذا يتحدث أهل

الإفك، وإنما قالت: (الناس) إشارة إلى شيوع الخبر في عموم الناس حتى وصل إليها بعد شهر من شكايتها.

وكان من حكمة أم رومان[١] (رضوان الله عليها) أن خالفت حديثها عما يوجبه ظاهر الكلام، فلم تجبها بما طلبت، وإنما أخذت تواسيها، وتطيب خاطرها فقالت: (يا بنية، هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قطُّ وضيئةً عند رجل يحبها، لها ضرائر إلا أكثرن عليها) . وياء النداء في (يا بنية) تشير إلى بعد منزلتها (رضي الله عنها) ورفعتها عما يخوض فيه الناس، والتصغير في (بنية) للتودد لها والتلطف معها ومواساتها، كما فيه إشارة إلى سلامة صدرها (رضي الله عنها) وحداثة سنها، حين غفلت عما يدار حولها .

والجملة كلها جاءت تسلية لأم المؤمنين (رضي الله عنها) وتخفيفًا عنها ـ كما ذكر العيني (رحمه الله)ـ[٢].

وهذا الكلام من أم رومان مليء بالإشارات والدلالات، وأول خصائص بنائه بعد تصدره بالنداء هو ذلك القسم في قولها: (فوالله) الذي يكشف عن احتشادها وتأكيدها على صدق ما تضمنه المقسم عليه، وتمكين معناه في نفس السامع[٣]، واللام في (لقلما) للتوكيد . أيضاـ وأصل قلّما: قلّ (وهو فعل ماض) دخلت عليه (ما) النافية فكفته عن العمل، فلم يحتج لفاعل[٤]، و(قطّ)

(١) أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتَّاب: أم عائشة (رضوان الله عليها) . الطبقات الكبرى . أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي المعروف بابن سعد المتوفى سنة (٢٣٠هـ) . تحقيق : محمد عبد القادر عطا (دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط : الأولى : ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م) جـ٨/صـ٢١٦.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري . بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني . المتوفى سنة (٨٥٥هـ) (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . دون تاريخ طباعة) جـ٤/صـ٣٦.

(٣) ينظر : أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا . د/ عبد الغني بركة . (دار غريب للطباعة والنشر . ط : الأولى . دون تاريخ) صـ٣١٧ .

(٤) ينظر : الجنى الداني :صـ٣٣٣ .

بفتح القاف وتشديد الطاء مضمومة ظرف زمان لاستغراق ما مضى، وتختص بالنفي[١]، والمراد تأكيد معنى النفي المفهوم من الفعل الماضي (قلّ) وما اتصل به، والتنكير في امرأة يشير إلى علوّ مكانة تلك المرأة وتعظيم شأنها، ثم أتبع التنكير بما يدل على معناه من علوّ المكانة وتعظيم الشأن، فقالت: (وضيئةً) من الوضاءة، وهو الحسن[٢] وقولها: (عند رجل يحبها) قيد بالظرف بعد التقييد بالحال والغرض من تلك القيود إظهار مكانة تلك المرأة، وبيان بواعث الحديث عليها بما تكره، ولا تبعد دلالة التنكير في (رجل) عن دلالته في (امرأة) من تعظيم الشأن وعلوّ المكانة .

والفعل المضارع في قولها: (يحبها) يعكس دوام المحبة بين تلك المرأة وبين زوجها، التي قلّما أن توجد دون حصول ما يعكر عليها صفو حياتها .

وقولها: (لها ضرائر) حال أخرى، تعمل على التخفيف عن أم المؤمنين (رضي الله عنها) وتطييب خاطرها، ببيان طبائع النفوس تجاه من تحظى بمحبة زوجها، ولها فيه ضرائر، وذلك على ما تجري عليه عادة النساء.

والضرائر: جمع ضَرّة ، وضرة المرأة : امرأة زوجها، وسُمّين بذلك؛ لأن كل واحدة يحصل لها الضرر من الأخرى بالغيرة[٣]، و(كثّرن عليها) أي من القول بعيبها[٤]، والتضعيف في (كثّرن) يشير إلى كثرة ما يقال ويشاع في حق تلك المرأة، وأثر ذلك عليها، كما تكشف صيغة الاستعلاء (عليها) عن شيء من تراكم الهموم وتثاقلها على النفس، ولما كان بيت النبوة أبعد من تلك الحقائد والضغائن التي تثار في نفس الضرائر عدّ الإمام القسطلاني (رحمه الله) الاستثناء في قولها: (إلا كثرن عليها) منقطعًا، وعلل ذلك بأن أمهات

(١) ينظر : مغني اللبيب : جـ٢/٥٤٩.
(٢) لسان العرب . مادة (وضا)
(٣) ينظر : لسان العرب . مادة (ضرر) وإرشاد الساري : جـ٤/صـ٣٩٣ .
(٤) إكمال المعلم : جـ٨/صـ٢٩٧ .

المؤمنين (رضوان الله عليهن) لم يعبنها، وقيل أن الاستثناء متصل، والمقصود بعض أتباع الضرائر، كما فعلت حمنة بنت جحش، أخت أم المؤمنين زينب (رضوان الله عليها)[١]، وقد يكون المقصود هو ذكر ما عليه غالب النساء دون نظر إلى خصوص حادثة الإفك وتعلق الأمر بأمهات المؤمنين، ويجعل الاستثناء متصلًا من هذا الوجه، وهو ما أشار إليه ابن حجر بقوله: "وعرف من هذا أن الاستثناء متصل؛ لأنها لم تقصد قصتها بعينها، بل ذكرت شأن الضرائر ..."[٢]

وبعد أن سمعت أم المؤمنين (رضي الله عنها) كلام أمها، المؤكد لكلام أم مسطح تعجبت من ذلك واستعظمت ما ذكره الناس عنها، فقالت (رضي الله عنها): (سبحان الله، أو لقد تحدث الناس بهذا ؟)، و(سبحان الله) من صيغ التعجب السماعية، التي تسعف النفس في إظهار ما يعرض لها من شعورٍ باستعظام أمر يخفى عليها سببه[٣]، ثم أردفت هذه الصيغة بما يؤجج من الشعور بالتعجب، ويضيف إليه شوبًا من الإنكار في قولها: (أو لقد تحدث الناس بهذا ؟) بهذا الاستفهام الإنكاري التعجبي، الذي سلطت فيه همزة الاستفهام على محذوف، وعطفت جملة: (لقد تحدث الناس بهذا) على ذلك المحذوف، والغرض من الحذف هو "حمل النفس على أن تذهب في تصوره كل مذهب ، وأن ذهاب النفس فيه كل مذهب هو قيمة هذا الأسلوب، ولو كان

---

(١) إرشاد الساري : جـ٤/صـ٣٩٣ .

(٢) فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٧ .

(٣) نظر: شرح المفصل للزمخشري : موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش. المتوفى سنة (٦٤٣هـ) تحقيق : د/ إيميل بديع يعقوب . (دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان . ط: الأولى : ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م) جـ٤/صـ٤١١ ، والنحو الوافي . عباس حسن . (دار المعارف . ط : الخامسة عشرة . دون تاريخ) جـ٣/صـ٣٣٩، والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم. د/ صباح عبيد دراز. (مطبعة الأمانة ـ القاهرة . ط : الأولى : ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) صـ٢٤٣.

غرض الكلام معقودًا على جملة معينة تعطف عليها الجملة الداخلة عليها الواو لجيء بها، وإنما الغرض أن تظل الجملة المعطوفة معلقة سابحة في فضاء تبحث عن أختها التي تقترن بها، وأن يظل المتدبرون للبيان في شغل بما يملؤون به هذه الفراغات التي يوقظهم ويثيرهم وجودها في الكلام"(١).

كما نلمح من وراء الحذف في هذا المقام ضيقًا في الصدر، وتصعيدًا لاستعظام ذلك الخبر أن يشاع على ألسنة الناس، وزاد من ذلك التعجب تأكيدُ الكلام باللام الموطئة للقسم ودخولها على حرف التحقيق (قد)، وإضافة الكلام للناس يرفع من نغمة التعجب والإنكار. أيضا. فمن كان جديرًا بوصف الإنسانية لا يحق له أن يجرى ذلك الكلام على لسانه، واسم الإشارة (هذا) يشير إلى قرب هذا الحديث من مسامع الناس، وأنه مما لم يعهدوا مثله عنها (رضوان الله عليها)، فكيف لهم أن يصدقوه ويتحدثوا به؟!.

وفي هذا الموقف الذي تعجز فيه العبارة وحدها عن نقل ما يجده المتكلم في نفسه، ويعتمل في صدره من آلام، تتسارع الدموع للتخفف من لوعة هذه الآلام، كما قال سليمان بن عبد الملك عند فقد ولده أيوب: "إني أجد في قلبي لوعة إن لم أبردها بعبرة خشيت أن تتصدع كبدي كمدًا وأسفًا"(٢)، فتقول (رضي الله عنها): (فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم...).

الفاء في (فبكيت) ترتب البكاء على ما قبله ترتيبًا من غير مهلة، والإشارة لتلك الليلة بما هو موضوع للبعيد أمارة على التنكر لها، والرغبة في استبعاد زمانها وطيّ صفحتها؛ لشدة وقعها على نفس أم المؤمنين (رضي الله

(١) آل حم (غافر وفصلت) دراسة في أسرار البيان . د/ محمد محمد أبو موسى . (مكتبة وهبة ـ القاهرة . ط : الأولى : ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٩م) صـ٨٠ .

(٢) التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا: أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد . المتوفى سنة (٢٨٥هـ) . تحقيق : إبراهيم محمد حسن الجمل . (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع . دون تاريخ) صـ١٦٤ .

عنها)، والتي عملت حروف المد على التنفيس من تلك الشدة، في قولها: (لا يرقأ لي دمع)، فالنفي بـ (لا) يدل على تطاول زمن النفي وامتداده في الحاضر والمستقبل.

ورقأ الدمع: إذا جف وانقطع[1]، وقولها: (لا أكتحل بنوم) من قبيل الاستعارة للسهر، حيث شبهت ما يحصل للعين بالنوم من راحة بما يحصل لها من صحة حين تكتحل، وذلك بجامع السلامة في كل، ونفي النوم بهذا الأسلوب يعني أنها لم تنل أي قدر من النوم، فالعين متى مسها الكحل فقد اكتحلت.

وقولها: (ثم أصبحت أبكي) يعكس فيه حرف العطف (ثم) تطاول زمن تلك الليلة وشدة وقعها على نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها)، والنص على البكاء هنا، فيه إشارة إلى امتداد زمن ذلك البكاء وتقلبها فيه ليلها ونهارها.

ثم تنتقل أم المؤمنين (رضي الله عنها) إلى مشهد آخر ترصد فيه موقف بعض الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) مما يشاع على ألسنة أهل الإفك، وما أشاروا به على رسول الله (ﷺ) حين استشارهم في مفارقة أهله .

فتقول (رضي الله عنها): "**وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ، وَلاَ نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟». قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ**

(١) تاج العروس . مادة (ر ق أ).

أَغْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ".

الواو في قولها: (ودعا رسول الله (ﷺ) ...) لعطف مضمون كلام على مضمون كلام سابق، وعطف مشهد من مشاهد القصة على مشهد آخر، أما عن اختصاص علي وأسامة (رضوان الله عليهما) بالمشورة دون غيرهما، فقد علل ابن حجر (رحمه الله) ذلك الاختصاص بمزيد قربهما من النبي (ﷺ) واطلاعهما من أحوال أهله على ما لم يطلع عليه غيرهما، "فقد كان عليّ (رضي الله عنه) بمثابة ولده (ﷺ)، وزاد قربه قربًا بعد تزويجه فاطمة (رضي الله عنها)، وأما أسامة فهو كعليّ (رضي الله عنه) في طول الملازمة ومزيد الاختصاص بالمحبة؛ لذا كانوا يطلقون عليه حبّ رسول الله (ﷺ)، وخصه دون أبيه وأمه؛ لكونه كان شابًّا كعلي ... وذلك أن للشاب من صفاء الذهن ما ليس لغيره، وأنه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المسن؛ لأن المسن غالبًا يحسب العاقبة، فربما أخفى ما يظهر له؛ رعاية للقائل تارة والمسئول عنه تارة أخرى"[1]، وهذا تعليل جيد يكشف عن طبائع النفس، وحكمته (ﷺ) في التثبت مما يشاع عن زوجه (رضي الله عنها)، حيث عمد إلى أكثر الناس معرفة بأحوال بيته، وأكثرهم جرأة على إظهار المقصود من غيرهم ممن يحسبون عواقب الأمور فيخفون ما يظهر لهم تحقيقًا لما يحسبونه من المصلحة.

و(استلبث الوحيُ) بالرفع، أي: انقطع، وبالنصب: استبطأه، والمضارع في (يسألهما ويستشيرهما) يستحضر هذا المشهد أمام عين كل قارئ على مرّ الزمان، إضافة إلى ما فيه من الدلالة على استمرار سؤاله (ﷺ) وتتبع تفاصيل الحادثة واستخراجها بالبحث والتقصي ممن هم أعرف الناس بأحوال أهل بيته،

(١) فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٩ .

وأما قولها (في فراق أهله) فقد عدلت فيه عن نسبة الفراق إليها، فلم تقل : في فراقي؛ لكراهة التصريح بإضافة الفراق إليها[١].

وقولها: (فأما أسامة) فهو متفرع عن قولها : (ودعا رسول الله (ﷺ) عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد ...) ، وقدمت مشورة أسامة في الذكر على مشورة علي (رضي الله عنهما) لما فيها من ذكر براءتها (رضي الله عنها)، والتصريح بإمساك أهله، وقولها: (فأشار عليه بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه) كلام مجمل، من شأنه إثارة ذهن المتلقي وبعثه على التطلع لمعرفة تفاصيل ما قاله أسامة (ﷺ) فجاء قولها: (فقال أسامة) كاشفًا لهذا الإبهام، ومفصلا لذلك الإجمال، و(أهلُك) بالرفع، خبر، والتقدير: هم أهلك، والمقصود من ذلك إحالة الجواب إلى رسول الله (ﷺ) بما يعلمه منهن، فهو أخبر بهن من غيره، ولا يحصل لمن سواه علم بأحوالهن فوق علمه (ﷺ)، والتعبير عن الزوجة بالأهل تعبير شائع، وقد نقل ابن حجر (رحمه الله) عن ابن التين قوله: (وإطلاق الأهل على عائشة (رضي الله عنها) وذكرها بصيغة الجمع؛ إشارة إلى تعميم الأزواج بالوصف المذكور"[٢] من العفة والطهارة، وعلم النبي (ﷺ) بذلك منهن.

ولم يكتف أسامة (ﷺ) بإحالة العلم بأحوال أم المؤمنين (رضي الله عنها) إلى النبي (ﷺ) وإنما أردف ذلك بذكر ما يعلمه عنها فقال: (ولا نعلم إلا خيرًا)، بهذا الأسلوب المؤكد، عن طريق القصر بالنفي والاستثناء، والذي لا يظهر إلا فيما ينكره المخاطب ويشك فيه، أو لما ينزل تلك المنزلة[٣]، والكلام هنا في مواجهة ما يدار حول أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وأثار الشك في صدر النبي(ﷺ)، الأمر الذي استدعى مشورة أصحابه (ﷺ) في فراقها، فكان الملائم للمقام هو مجيئه على هذا الوجه من التوكيد، وفي التعبير بصيغة

(١) ينظر : فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٨ ، وإرشاد الساري : جـ٤/صـ٣٩٤ .
(٢) فتح الباري: جـ٨/صـ٤٦٨ .
(٣) ينظر : دلائل الإعجاز . صـ٣٣٢ .

الجمع (لا نعلم) وعدم قصره على نفسه بأن يقول: (لا أعلم) امتداد لمظلة النفي بالعلم إلا بما فيه الخير وشمولها لكل من حصل له علم بأحوال أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وتنكير الخير في قوله: (إلا خيرًا) ليشمل عموم كل خير يمكن أن يقع في الوجود، وإلصاقه بأم المؤمنين (رضي الله عنها)، فقد حازت من صنوف الخير ما تعجز العبارة عن حصره، فهو خير كثير لا يضاهيه في كثرته ونوعه خير .

وقولها: (وأما عليّ ...) فمعطوف على قولها: (فأما أسامة ...) وهو من تمام التفصيل لما أجمل في قولها: (يستشيرهما في فراق أهله ...)، وقد جاءت مشورة سيدنا عليّ (ﷺ وكرم وجهه) مغايرة في نسقها ومضمونها لما أشار به أسامة (ﷺ)، فقد استهل عليّ (رضوان الله عليه) كلامه بهذا النداء اللافت: (يا رسول الله)، والذي يشعرنا بغرابة ما يأتي بعده، ومن ثم فهو يهيئ الأسماع لتلقي ذلك الخبر، وهو تلك الإشارة الضمنية بفراق أم المؤمنين (رضي الله عنها) في قوله: (لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير)، الجملة كلها كناية عن المشورة بفراق أهله (ﷺ)، ولم يصرح بذلك لشدة وقعه على نفس رسول الله (ﷺ) لما يعلمه من مكانة أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) عند رسول الله (ﷺ)؛ ولذا كان التمهيد بالنداء تنبيهًا لهذا الخبر ولفتًا لما فيه من شدة على النفس، وإن كان الباعث عليه في نظر علي (رضوان الله عليه) هو تحقيق المصلحة لرسول الله (ﷺ)؛ لما رآه من انزعاج النبي (ﷺ) وشدة حيرته، فأشار عليه بذلك لإرادة راحة خاطر النبي (ﷺ) وليس عداوة أو بغضًا[1]؛ لذا جاءت تلك المشورة مقرونة بما يخفف وطأتها، من التهيئة لها بالنداء، والعدول بها عن التصريح إلى الكناية، وعدم الجزم بتلك المفارقة، وإنما فوض الأمر لرسول الله (ﷺ) حين أشار إليه بسؤال الجارية في قوله: (وسل الجارية تصدقك)، وسل: فعل أمر متضمن معنى الشرط، وعند

(١) ينظر : فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٨ ، وعمدة القاري : جـ١٧/صـ٢٠٩ .

مسلم: (وإن تسأل الجارية تصدقك)، بالتصريح بأداة الشرط، والأمر هنا داخل في حيز المشورة، وبناء العبارة على أسلوب الشرط يعكس شدة الموقف على نفس هؤلاء الصحابة (رضوان الله عليهم) وكيف أن كل واحد منهم يخشى أن يكون سبب فراق النبي (ﷺ) لأهله، ورأينا كيف أحال أسامة (رضوان الله عليه) النبي (ﷺ) إلى علمه بأحوال أهله في قوله: (أهلُك)، ونرى هنا كيف يحيل عليّ (رضوان الله عليه) العلم بأحوال أم المؤمنين إلى الجارية؛ لكونها أكثر قربًا وملازمة لها (رضوان الله عليها) من غيرها.

وقولها: (فدعا رسول الله (ﷺ) بريرة ...) معطوف على ما قبلة، وهو ما أشار به عليّ (رضي الله عنه) من سؤال الجارية، ومرتب عليه، وبريرة هي جارية أم المؤمنين (رضي الله عنها)، كانت مولاة لعتبة بن أبي لهب وبنيه، فباعوها لأم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) واشترطوا ولاءها، فلما سمع رسول الله (ﷺ) ذلك قال: " ما بال بريرة؟" فأخبرته أم المؤمنين أن أهلها لا يبيعونها حتى يشترطوا ولاءها، فقال رسول الله (ﷺ): " اشتريها وأعتقيها ودعيهم فيشترطون ما شاءوا" فاشترتها أم المؤمنين (رضي الله عنها) فأعتقتها، وقال رسول الله (ﷺ): " الولاء لمن أعتق ولو اشترطوا مائة مرة"[(١)].

والعطف بالفاء في قولها: (فقال :أي بريرة ...) يجعل تلك الجملة مرتبة على ما قبلها، وليس متولدة منها عن طريق سؤال يثار من خلالها، وتصلح تلك الجملة لتكون جوابًا عنه، وقوله (ﷺ): "أي بريرة ..." نداء لها، أوثر فيه أداة النداء الموضوعة لنداء القريب؛ تلطفًا معها، وحملًا لها على الإقرار بما تعرفه من أحول أم المؤمنين (رضي الله عنها)، والاستفهام في قوله (ﷺ): "هل رأيت من شيء يريبك؟" جاء على حقيقته، من طلب حصول صورة ما يستفهم عنه في ذهن المستفهم[(٢)]، ودخول (من) على (شيء) وهو نكرة

(١) ينظر: الطبقات الكبرى: جـ٨/صـ٢٠٢ ، وسير أعلام النبلاء : جـ٢/صـ٢٩٧.
(٢) ينظر: شروح التلخيص. (دار البصائر . القاهرة . ط : الأولى: ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م) جـ٢/صـ٢٤٦ .

يسلط الاستفهام على أدنى شيء يمكن أن تحصل منه ريبة في شأن أم المؤمنين (رضي الله عنها)، والسؤال عن الرؤيا في تلك الحالة يجعل من اليقين . الذي جُعلت الرؤيا أمارةً عليه . أساسًا لبناء الأحكام، وليس لمجرد كلمة تقال هنا، وتقذف هناك .

وقولها: (قالت: بريرة ...) جواب عن سؤال يثار من الكلام السابق، مفاده: وماذا قالت بريرة، وهنا نرى توالد الجمل من رحم بعضها، واتصالها فيما بينها اتصالًا داخليًا لا يحتاج معه إلى رابطة خارجية، وذلك عن طريق الاستئناف البياني، الذي يعد من أعلى صور مشاركة المتلقي للمخاطب في بناء النص.

ثم تأتي شهادة بريرة (رضوان الله عليها)، وهي الصحابية الجليلة التي خالطت أم المؤمنين (رضي الله عنها)، ورأت منها ما لم يره غيرها، مستهلة شهادتها بالقسم: (والذي بعثك بالحق ...)، والغرض منه التأكيد على صدق ما تقسم عليه وتقويته وتحقيقه، والحق هو الوحي المنزل من عند الله (ﷻ)، وهو اسم من أسمائه (ﷻ)، وهو الشيء الثابت الذي لا يتغير، ومن معانيه المطابقة والموافقة[1]، والتعبير به هنا جاء مناسبًا لما يتطلبه مقام الشهادة من الإخبار بما تعلم، وبما يتوافق مع الواقع ويطابقه.

وقولها: (ما رأيت عليها من شيء أغمصه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله) من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم؛ لأنها صدرت كلامها بنفي كل ما من شأنه أن يعيب أم المؤمنين (رضي الله عنها) وينتقص قدرها، فقالت: (ما رأيت من شيء أغمصه)، والغمص هو العيب والاحتقار[2]، ثم استثنت من هذا العموم فقالت: (غير أنها)، وهنا يتوهم السامع أن ما يأتي بعد (غير) سيكون من جنس من يعاب

(١) ينظر: تاج العروس. مادة (ح ق ق)
(٢) السابق . مادة (غ م ص)

عليه ويحتقر، ولكنها أتت بصفة مدح أخرى مبالغة في المدح بنفي العيب عنها، فقالت: (تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله) " فغفلتها عن عجينها أبعد لها من مثل ما رميت به، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات " كما قال ابن حجر (رحمه الله)(١)، والنفي بـ (ما) في قولها: (ما رأيت) دون (لم) يشير إلى امتداد زمن النفي وتطاوله؛ ليشمل ماضي الزمان وحاضره ومستقبله، كما أن في التعبير بـ (أمر) منكرًا شمولًا لكل أمر يمكن أن تلام عليه ويعد منها عيبًا، ثم يأتي التعبير بالمضارع في قولها : (تنام وتأتي وتأكله) استحضار لتلك المشاهد ممثلة أمام عين المتلقي؛ تأكيدًا على غفلة أم المؤمنين (رضي الله عنها) وبعدها عما رميت به، والداجن: ما ألف البيت ولازمه من شاة وغيرها(٢).

وبعد مشورة رسول الله (ﷺ) صاحبيه عليًّا وأسامة (رضوان الله عليهما)، وشهادة بريرة (رضي الله عنها) انعطفت الأحداث إلى مسار آخر يواجه فيه رسول الله (ﷺ) أهل الإفك، ويعلن خصومته لهم، ويستنصر عليهم.

تقول (رضي الله عنها) : **فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي»**.

والفاء في قولها: (فقام رسول الله (ﷺ) ...) ترتب قيامه (ﷺ) على ما قبله مباشرة من غير مهلة، الأمر الذي يعكس إرادة النبي (ﷺ) القوية، ورغبته في وضع حدّ لما يقوله أهل الإفك، وإسكات تلك الألسنة، ببيان موقفه (ﷺ)

(١) فتح الباري: جـ٨/ صـ٤٧٠ .
(٢) لسان العرب. مادة : (دجن)

تجاه أهل بيته، والرجل الذي يذكرونه فيهم، وقولها: (من يومه) تأكيد على تلك الهمّة والحرص على إظهار براءة أهله بعد شهادة الجارية.

وجملة (وهو على المنبر) حال من القيام، وعطفها عليه بالواو يعكس تميزها في مقامها، فلا يقام على المنبر إلا في عظائم الأمور، ولا أعظم من أن يخاض في عرض أهل بيته (ﷺ)، ومما يؤجج من هذا التعظيم ويصعده نداء رسول الله (ﷺ) على صحابته الكرام بوصف (معشر) والتي لا يؤتى به في أغلب مواقعه إلا فيما عظم أمره واشتد خطره .

وقوله (ﷺ): "مَن يعذرني مِن رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي" استفهام مشوب بالحث والتحريض، ويعذرني بمعنى ينصرني، والعذير: النصير، وقيل المقصود من يقوم بعذري إن كافأته على قبيح فعاله، ولا يلومني[1]، ونقل ابن حجر عن الخطابي قوله: " ويحتمل أن يكون معناه من يقوم بعذره فيما رمى أهلي به من المكروه، ومن يقوم بعذري إذا عاقبته على سوء ما صدر منه"[2]، فيكون معناه النفي، أي: لا أحد يجد له عذرًا فيما فعل، ولا أحد يجد لي عذرًا فيما عاقبته، ولكن قول سعد بن معاذ (ﷺ): (أنا أعذرك) يرجح أن يكون المقصود هو النصر، وليس التماس العذر.

والتنكير في (رجل) للتحقير والتهوين، فلا أحد أحقر ممن يخوض في عرضه (ﷺ) ويلحقه منه أذاه، وجملة (قد بلغني منه أذاه ...) حال تصعد من أمر المناصرة وتدعم حجيتها، وتدفع للامتثال لها، ودخول (قد) عليها يعني أن مؤاخذة هذا الرجل مبنية على التثبت والتحقق بما جاء به من أذى.

والواو في قوله: (والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا ...) للقسم، والكلام مبني على القطع والاستئناف لتعاظم المعنى الذي يحمله في نفس المتكلم، وهذا باب متسع جدًا "فنرى الكلام فيه يحمى عند مقطع معين فيؤز

(١) ينظر : المنهاج للنووي : جـ١٧/صـ١٠٩ .
(٢) فتح الباري : جـ٨/صـ٤٧٠ .

النفس نحو غرض ويعطفها نحوه وتكون كأنها صارت ظمئة إلى مزيد من الكلام حول شيء فيه"[1]، والغرض المقصود هنا هو التأكيد على براءة أهله (ﷺ)، وأنه لا يعلم عليهم إلا خيرًا.

وقد بنيت جملة القسم على القصر المؤكد للخبر المقسم عليه، قصر موصوف على صفة، والمقصود قصر علم النبي (ﷺ) بما عليه حال أهله على الخير المحض، لا يتعداه لأي شائبة من شر أو نحوه، وطريق القصر هنا هو النفي والاستثناء، وهو الأنسب للمقام؛ لأنه في مواجهة أهل الإفك الذين خاضوا في عرض أم المؤمنين، وتكرار لفظة (الأهل) وإضافتها إلى ضمير المتكلم يكشف عن قوة اللحمة بين النبي (ﷺ) وبين أهله، وشدة معرفته بهم، وإطلاق لفظ الأهل على عائشة يعني عموم وصف العفاف لسائر نسائه (ﷺ)، أو أنه جاء على سبيل التعظيم لشأنها (رضي الله عنها) .

وقوله (ﷺ): " (وقد ذكروا رجلًا ...) معطوف على ما قبله وداخل في حيزه، وباعث من بواعث الاستعذار من عبد الله بن أبي، وتنكير (رجل) هنا مقابل للتنكير في رجل في قوله : (من يعذرني من رجل ...)، فهو هنا تنكير تعظيم وتفخيم لشأن ذلك الرجل الذي ذكروه، وإضافة فعل الذكر إلى ضمير الجمع في قوله: (ذكروا)، يكشف عن شيوع الخبر وكثرة ترداده على ألسنة الناس، الأمر الذي لم يعد فيه فعل الذكر مقرونا بفاعل معين يمكن إلحاقه به.

وأما قوله (ﷺ): (ما علمت عليه إلا خيرًا) فجاء . أيضا. مبنيًّا على القصر، والغرض منه تأكيد المعنى في نفس المخاطبين ونقله إليهم على الحال التي هو عليها في نفس المتكلم من التأكيد والتحقيق، وتنكير الخير في جانبي أم المؤمنين (رضي الله عنها) وصفوان بن المعطل (رضي الله عنه) يكشف عن كثرة هذا الخير بعد حصوله فيهما على الوجه الذي تبعد معه أي شبهة.

---

(١) دلالات التراكيب. دراسة بلاغية. أ.د/ محمد محمد أبو موسى . (مكتبة وهبة . القاهرة. ط: الرابعة : ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م) صـ٣١١.

ثم جاء قوله (ﷺ): (ولا يدخل على أهلي إلا معي) يعزز من منابع الخير في هذا الرجل، ويعكس مدى قربه من رسول (ﷺ) إلى الحد الذي يدخل فيه على أهل بيته دخولًا مقيدًا بكونه مع رسول الله (ﷺ) الأمر الذي يدل على سمو أخلاقه (ﷺ) وطهارة قلبه، والمضارع في (يدخل) يعمل على تصوير تلك العلاقة بين النبي (ﷺ) وذلك الصحابي الجليل، والتي لم تنقطع رغم ما يثار ويشاع، فقد كان ذلك الصحابي يدخل على رسول الله (ﷺ) ولا يزال يدخل كعادته؛ تأكيدًا على نزاهة ذلك الصحابي، وطهارة بيت النبوة.

وبعد أن استعذر رسول الله (ﷺ) ممن بلغه عنه أذاه في أهله، جاءت إغاثة سعد بن معاذ (ﷺ)، وهو السيد الكبير الذي لا تخفى مناقبه، وكان (ﷺ) سببًا في إسلام دار بني عبد الأشهل كلهم(١).

والمهم هنا هو ما قاله ذلك الصحابي الجليل، وكان سببًا في تلاحي الحيّين من يثرب ـ الأوس والخزرج . .

قالت (رضي الله عنها): (فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال: (أنا يا رسول الله أعذرك)، ولرصد الحركات المصاحبة للأقوال داخل الحديث أثر بالغ في نقل خلجات النفوس، وما يصاحب الأقوال من صدق العزم وقوة الإرادة في مباشرة الأفعال التي تعقب تلك الحركة، فقيامه (ﷺ) يكشف عن شدة تهيئه، وقوة تحمله، وصدق عزيمته في مناصرة رسول الله (ﷺ)، ومن ثم جاءت جملة (أنا يا رسول الله أعذرك) على هذا النحو من البناء المحكم، الذي يعكس شدة التهيؤ وامتلاء النفس بما شرعت في الاستعداد له، فقدم المسند إليه على النداء، الذي غالبًا ما يكون له صدارة الكلام، وما ذلك إلا لامتلاء النفس واحتشادها لتحقيق ما هي آخذة فيه، وجاء النداء بـ (يا) الموضوعة للبعيد إشارة لبعد مكانته (ﷺ) عن أن يُنال بأذى، والمضارع في (أعذرك) يعكس دوام تلك المناصرة واستمرارها في كل زمان دون قصرها على

(١) ينظر : سير أعلام النبلاء : جـ١/صـ٢٨٠ .

حادثة معينة، وهكذا كان سعد بن معاذ (رضي الله عنه) في كل مواقفه، وما موقفه يوم بدر ببعيد عن ذلك، حين وقف رسول الله (ﷺ) يستشير أصحابه في الخروج لملاقاة قريش، وهو يعلم أن الأنصار ليس عليهم حق الدفاع عنه خارج ديارهم، فوقف سعد بن معاذ (رضي الله عنه) وأعطي لرسول الله (ﷺ) ما يؤمله منهم قائلًا: "فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد"[1]، وفي هذا الموقف يعلن (رضي الله عنه) مناصرته لرسول الله (ﷺ) على من أذاه حتى لو كان من الأوس، فقال (رضي الله عنه): (فإن كان من الأوس ضربت عنقه)، والجملة مبنية على الشرط وجوابه، والجواب هنا قوله (ضربت عنقه) ومجيئه في قالب الماضي يعكس صدق العزم في تحقيق هذا الجواب متى حصل الشرط، وتقييد فعل الشرط بـ (إن) في قوله: (فإن كان من الأوس) ينبئ باستبعاد وقوعه منهم، ومع ذلك فالقطع بالجزاء لا يزال قائمًا، وليس ذلك بمستغرب على سعد (رضي الله عنه) فهو سيد الأوس، وأعلم بمضاء كلمته فيهم.

أما الخزرج فلا سلطان له عليهم، ومن ثم جاء كلامه في جانبهم أخف نبرة، ولم يصرح فيه بقتل أو غيره، وإنما أوكل الأمر لرسول الله (ﷺ) فقال: (وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك)، والنص على الأخوة هنا احتراس من سعد (رضي الله عنه) قصد منه رفع توهم أن يكون حكمه عليهم نابعًا من العداوات القديمة بين الحيين، وقوله: (أمرتنا ففعلنا أمرك) مبالغة في هذا الاحتراس، حيث أدخل الحيين معًا تحت مظلة أمره (ﷺ)، ولم يخص نفسه بفعل كما صرح في جانب قومه حين قال: (ضربت عنقه)، ومع ذلك الاحتراس فقد وقع ما كان يحذره سعد بن معاذ (رضي الله عنه) وهو ما سجلته أم المؤمنين (رضي الله عنها) بقولها: (فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه، وهو سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج).

(١) السيرة النبوية. ابن هشام : جـ١/صـ٦١٥ . والسيرة النبوية . ابن كثير: جـ٢/صـ.٣٩٢.

والملاحظ أن أم المؤمنين (رضي الله عنها) لم تصرح باسم سعد بن عبادة (ﷺ) مباشرة، بل قدمت بين يديه بما يهيئ الأسماع ويدفعها إلى معرفته، وذلك في قولها: (فقام رجل من الخزرج)، كما نلحظ في تلك التهيئة مسارعةً إلى ذكر الخزرج الذين ذكرهم سعد بن معاذ في كلامه (وإن كان من إخواننا من الخزرج)، وبيان موقفهم من كلام سعد بن معاذ (ﷺ)، وتنكير (رجل) هنا يشير إلى علوّ كعب ذلك الرجل ومنزلته في قومه، وقولها: (وكانت أم حسان بنتَ عمه ...) بيان لآصرة القربى بين ذلك الرجل وبين من كان متهما بإلحاق الأذى برسول الله (ﷺ)، ووضع تلك الجملة في أنف الكلام يعكس ما يمكن أن يكون قد توهمه سعد بن عبادة (ﷺ) عنه من أن مقالة سعد بن معاذ (ﷺ) نابعة من ضغائن قديمة كانت بين الحيين، وقولها: (من فخذه) يؤجج من تلك الحمية والعصبية التي احتملته لقومه.

وقولها : (وهو سعد بن عبادة) بيان للخفاء الوارد في (رجل من الخزرج) والتي جعلته توطئة بين يدي كلامها؛ لتهيئ الأسماع لذكره والوقوف على علوّ قدره وخطر كلمته في قومه، ولذلك عقبت ذكر اسمه بقولها: (وهو سيد الخزرج)، بتكرار ضمير المحدث عنه، وإسناد الخبر إلى ذلك الضمير، وهو بيان موضعه في قومه وأنه يحل منهم محل السيادة، كل ذلك تأكيدًا على خطر كلمته فيهم، وأثر مقالته على نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها) مما حملها على إثبات الصلاح له مقيّدًا بكونه قبل تلك الحادثة فقالت: (وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا)، والمقصود: كامل الصلاح، ولم يثبت أنه خاض مع أهل الإفك فيما خاضوا، أو عارض حكمًا لرسول الله (ﷺ)، وإنما قال ذلك في مقابلة كلام سعد بن معاذ (ﷺ)، حمية لقومه، حين ظن أن كلام سعد باعثه ما كان بين الحيين من عداوة.

وصيغة المفاعلة في قولها: (احتملته) تدل على احتدام الموقف وشدته على ذلك الصحابي الجليل، وبيان أنه حُمل حملًا على ما قال، ومعنى

احتملته: أغضبته، وعند مسلم (اجتهلته) من الجهل، أي: حملته حميته على الجهل.

وقولها: (فقال لسعد ...) معطوف على قولها: (فقام رجل من الخزرج) وترتب القول على القيام وعطفه عليه بالفاء يرسم صورة الغضب والحمية التي اجتهلت سعد بن عبادة (ﷺ) .

والمقصود من قوله (ﷺ): (كذبت لعمرو الله لا تقتله ...)، أنك كاذب في دعواك أنك قاتله إن كان من الأوس، ودليل ذلك قوله: (ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل)، ووضع الكذب في قالب الفعل الماضي مضافًا إلى ضمير المخاطب، يجعل الكلام خبرًا مرسلًا، خاليًا من التوكيد، مما يعكس أن مسألة القبلية عند سعد بن عبادة لا تزال مترسخة في قلبه وعقله، وأن مناصرة فرد من أفراد القوم ظالمًا أو مظلومًا لا تزال تتحكم في هؤلاء بمفهومها الجاهلي، فهو يخبرنا أن مقالة سعد بن معاذ: لو كان من الأوس ضربت عنقه، لا تصادف واقعًا، وأن هذا الأمر من الوضوح والظهور بما لا يحتاج في إثباته إلى ما يؤكده. هكذا رآها سعد بن عبادة (ﷺ)، بل إن ما يحتاج إلى توكيد هو أنك لا تقتله ولا تقدر على قتله، ومن ثم جاء قوله: (لعمرو الله لا تقتله ولا تقدر على قتله) مؤكدًا بجملة القسم (لعمرو الله) وهو مبتدأ محذوف الخبر؛ لدخول لام الابتداء عليه، والتقدير لعمرو الله قسمي أو يميني[1]، وقوله: (لا تقتله ولا تقدر على قتله) جواب القسم، والمقصود بـ (لا تقتله) أي :لا ترضى بقتله، وهو المفاد من قوله فيما يأتي: (ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل)، و(لا) في قوله: (لا تقتله) تجسد امتداد زمن المناصرة للقوم وعدم الرضى أن ينال أحد منهم بسوء في كل وقت وعلى أية

(١) ينظر : المقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية. الإمام بدر الدين محمود بن أحمد العيني . المتوفى سنة(٨٥٥هـ) تحقيق : أ.د/ علي محمد فاخر ، وأ.د/أحمد محمد توفيق السوداني، ود/ عبد العزيز محمد فاخر. (دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة . ط : الأولى : ١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م) جـ٢/صـ٨٨٤ .

حال . على ما يرى سعد بن عبادة (ﷺ) . ، والمقصود من قوله: (لا تقدر على قتله) أي يمنعك قومك من إرادة ذلك، وجاء نفي القدرة بـ (لا) . أيضا- لتعكس امتداد هذا النفي في كل زمان .

وجملة: (فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عمّ سعد ...) هذه الجملة معطوفة على جملة فقام رجل من الخزرج، والموقف كله مشحون بمشاعر الغضب والتوقد، ولفظة القيام مشعرة بذلك التوقد في كل مواقعها في هذا المقام، والملاحظ في كلام أم المؤمنين (رضي الله عنها) هو إظهار وشائج القربى التي تربط الأشخاص الذين يجري لهم ذكر في حادثتها؛ حتى ترسم للمخاطب انفعالات هؤلاء الشخوص، ومدى صدقهم في مواقفهم المختلفة داخل السياق، فأسيد بن حضير(ﷺ) هو ابن عمّ سعد بن معاذ(ﷺ)، وقوله: (كذبت، لعمرو الله لنقتلنه) مقابل لمقالة سعد بن عبادة (لعمرو الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله) أي كذبت في تكذيب سعد بن معاذ، وادعائك أن قومه سيمنعونه من ذلك، ومن ثم جاء فعل القتل مسندًا إلى ضمير الجمع في قوله: (لنقتلنه) بما يشير إلى منزلة سعد بن معاذ في قومه، وأن كلمته (ﷺ) نافذة فيهم، وقد أكدت هذه الجملة بما أكد به سعد بن عبادة(ﷺ) كلامه من القسم، وزاد عليها دخول لام التوكيد على فعل القتل، والغرض من ذلك . كما ذكرت . هو مقابلة كلام سعد بن عبادة، وإظهار مناصرة رسول الله (ﷺ) على من بلغه منه أذاه في أهله، والتأكيد على منزلة سعد بن معاذ (ﷺ) في قومه.

وقول أسيد بن حضير (ﷺ) لسعد بن عبادة(ﷺ): (فإنك منافق، تجادل عن المنافقين)، متفرع عن كلامه السابق، والمقصود من قوله : (فإنك منافق) المبالغة في الزجر فقط، وليس النفاق الحقيقي[1]؛ لوقوع جملة (تجادل عن المنافقين) بيانًا لها، وجعل الجدال عن المنافقين نفاقًا مبالغة في الزجر ليس أكثر.

(١) ينظر: فتح الباري : جـ٨/صـ٤٧٤ .

وقولها (رضي الله عنها): (فثار الحيان) يرسم فيه لفظ الثورة شدة حركة هؤلاء القوم واضطرابهم وموران نفوسهم وتشاحنهم فيما بينهم، وقولها (الأوس والخزرج) بيان للحيين، وهما . أي الأوس والخزرج . أنصار رسول الله (ﷺ) الذين آووه ونصروه، ومنَّ الله عليهم بالإسلام فزالت العداوات التي كانت بينهم، وصاروا بنعمة الله إخوانًا، والتصريح بلفظ الأوس والخزرج هنا، يعكس شدة تلك الفتنة على نفوسهم وأنها أيقظت فيهم عداوات الماضي وأحقاده؛ لذا لم تقل الأنصار، ولم تكتف بذكر الحيين وإنما أردفته بذكر الأوس والخزرج.

وقولها: (حتى همّوا أن يقتتلوا) بيان لمدى ما بلغت إليهم ثورتهم، والهمّ هو آخر العزيمة عند مواقعة الفعل . كما ذكر العسكري في فروقه .[1]، والمعنى أن الغضب قد بلغ غايته منهم، حتى وصل إلى ذلك الحد، ورسول الله (ﷺ) لا يزال قائمًا على المنبر، وتلك حال أخرى تبرز شدة الغضب والحمية التي احتملتهم، وقد قصدت أم المؤمنين (رضي الله عنها) أن تظهر حال قيامه (ﷺ) مستقلًا عما قبله فأوردته معطوفًا على ما قبله في قولها: (ورسول الله (ﷺ) قائم على المنبر)؛ لبيان مدى ما بلغت إليه ثورة القوم، رغم وجود ما يدفعها عنهم، وهو قيام رسول الله (ﷺ) بينهم على منبره، فهذا وحده كان كفيلًا بنزع الشقاق بينهم .

وقولها: (فلم يزل رسول الله (ﷺ) يخفضهم حتى سكتوا وسكت) معطوف على جملة (فثار الحيَّان...) والمضارع في (يخفضهم) يصور مشهد تهدئته (ﷺ) لأصحابه وإسكان ثورتهم، وبين هذا التخفيض وثورة القوم تضاد خفي، فالخفض مقابل للرفع المفهوم من لفظ الثورة ولازم من لوازمها، وعليه فقد جاء هذا اللفظ يرسم المقابلة بين الموقفين، وصيغة المضارع فيه عملت على تصوير مشهد الثورة والتخفيض من جميع جوانبه.

(١) الفروق اللغوية : ٥٥٩ .

وبعد ذلك الموقف المتأزم بين الأوس والخزرج تأتي جملة (حتى سكتوا وسكت) تضع حدًّا لهذا التوتر، ليس فقط بدلالة ألفاظها، بل بوقع حروفها- أيضا - حين شاعت في تلك الجملة حروف الهمس (السين والكاف والتاء) والتي تشكلت منها لفظة (سكت) لتعكس حالة السكون التي وصلوا إليه بعد تخفيض رسول الله (ﷺ) لهم .

وهنا تأخذ الأحداث طابعًا آخر، إذ لم تعد دائرة آثارها مقتصرة على أم المؤمنين (رضي الله عنها) وإنما امتدت لتشمل المجتمع المسلم كله في ذلك الوقت، وكادت أن تفجر منابع الشر التي كمنت في صدور الأوس والخزرج، بعد أن جفف الإسلام منابعها، وهذا لم يكن وقعه على أم لمؤمنين هيّنًا، وإنما زادها حزنًا وألمًا على حزنها وألمها، وهذا ما يرصده قولها :

(فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي)

هذا الجزء من الحديث يعكس تقلب أم المؤمنين (رضي الله عنها) بين البكاء، ليلها ونهارها، فقد بكت ليلة أخبرتها أمها، ولم تفلح محاولات أم رومان (رضي الله عنها) في تطييب خاطرها، فظلت تبكي ليلتها تلك لا ينقطع بكاؤها، وها هي تبكي يوم أن وقف رسول الله (ﷺ) على منبره يستعذر الناس ممن بلغه منه أذاه في أهله، وتظل تبكي يومها ذلك وليلته، حتى يصبح عندها أبواها، ولا شك في أن بواعث بكائها ليلتها الأولى غير بواعثه في يومها وليلتها الثانية بعد ثورة الأنصار، فهو في الثاني أشد وقعًا وأعظم أثرًا؛ لامتداد آثاره على المجتمع المسلم، ومن ثم زادت من قيود بكائها في الموقف الثاني، فلم تكتف بكونها لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم، وإنما زادت قولها: (حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي)، وهي من قيود بكائها ومتعلقات شعورها في هذا الموقف، وجاء هذا القيد مشحونًا بالمؤكدات التي تبرز حالة أم المؤمنين (رضي الله عنها) وما تعانيه في هذا المقام، فصدرت الجملة بـ (حتى) التي

تشعرك ببلوغ القصد وانتهاء الغايات، فقد بلغ البكاء معها غايته، وهذه الغاية تتجسد في ظنها أن البكاء فالق كبدها، ثم أعقبت حتى بـ (إن) مضافة إلى ضمير التكلم إبرازًا لتلك الذات التي بلغ الإعياء والجهد منها ما بلغ، ثم أعقبت ذلك باللام الداخلة على الظن في قولها: لأظن؛ ارتقاء بذلك الظن إلى مشارف اليقين، ثم تقرر شأن التوكيد ثانية بـ (أن) الداخلة على البكاء في قولها: (أن البكاء ...) وذلك لتوكيد مضمون ما ظنته من أمر البكاء، وجاء التعبير باسم الفاعل في قولها: (فالق) تأكيدًا على لصوق فعل الفلق بفاعله البكاء، وكأنها ذكرته مرة بصريح لفظه ومرة مصحوبًا بأثره من فلق الكبد، والقصد من وراء ذلك كله التأكيد على تقلبها (رضوان الله عليها) في البكاء، واستغراقه لكل وقت في ليلتيها ويومها .

ثم تنقل أم المؤمنين (رضي الله عنها) إلى مشهد آخر تستدعي فيه شخصية من شخصيات قصتها، ليس بذكر اسمها ولا نسبها .كما حدث مع الشخصيات السابقة .وإنما بذكر مشاركتها الوجدانية لها في حزنها وألمها، وكان لهذا الدور الذي قدمته تلك الشخصية أثر بالغ في نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها)، فحرصت على تسجيل أحداثه في ثوب لفظي يعكس حفاوتها به، فقالت (رضي الله عنها):

(فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي) .

سبق القول بأن (بينا) ظرف يشعر السامع عند تلقيه بنوع من المفاجأة من وقع أمر حصل للمتكلم ويريد أن يلفت إليه، ويفجئ السامع بما تفاجأ هو به.

ويبدو هنا جليًّا حرص أم المؤمنين (رضي الله عنها) على إشباع المعنى الذي تفاجأت به، وتصوير أدق خفاياه، فرصدت جلوس أبويها عندها حالة بكائها، والمضارع في (أبكي) يعمل على تصوير هذا المشهد واستحضاره أمام عين المتلقي، وذلك كله من باب تهيئة المتلقي لاستقبال ما تفاجأت به،

وهو قولها: (فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي)، وتقديم الجار والمجرور في قولها (عليّ) يكشف عن حالة العزلة التي استشعرتها أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وكيف أنها نأت بنفسها عن كل من سواها، إلا ما كان من أبويها وهما أقرب الناس إليها، فيأتي التقديم في (عليّ) ليوحي بكسر تلك العزلة بدخول تلك المرأة الشريفة على أم المؤمنين (رضي اله عنها) لتبكي معها، وتُسعدها في حزنها.

وموطن المفاجأة يكمن في بكاء تلك المرأة التي لم يرد ذكر لاسمها، ولا لشيء من أحوالها، غير أنها امرأة من الأنصار، فهي إما من الأوس وإما من الخزرج، الحيان اللذان سبق الحديث عنهما، ولكنها هنا تطوي تلك التفرقة التي أعادتها الحمية ثانية، وتبرز صفة الأنصار التي أحدثها الإسلام فيهم وسماهم بها، وذلك حين ظهرت معاني الرأفة والتودد من تلك المرأة التي جلست تبكي مع أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وظلت تلك الحالة عالقةً في نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها) فسجلتها كما هي مجردة عن أي شيء يعكر صفو تلك العبارة .

وجملة (تبكي معي) واقعة موقع الحال، واتصالها بما قبلها يقرنها به ويجعلها معه خبرًا واحدًا فهو جلوس هذا حاله، وكأنها ما قدمت ولا جلست إلا لمشاركة أم المؤمنين (رضي الله عنها) في حزنها وألمها .

ثم يتولد من هذا المشهد الذي تفاجأت به أم المؤمنين (رضي الله عنها) مشهد أعجب منه وأغرب، أخذت أم المؤمنين (رضي الله عنها) تمهد له . أيضا. بما يشعر بغرابته فقالت (رضي الله عنها):

(فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ

كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ») .

اسم الإشارة في قولها: (فبينا نحن على ذلك ...) عائد إلى ما ذكرته أم المؤمنين(رضي الله عنها) من حال جلوس أبويها عندها وبكائها وبكاء المرأة الأنصارية الشريفة معها، وجعل اسم الإشارة للبعد يعكس شدة الموقف المشار إليه على نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها)، فجعلت بينها وبينه تلك المسافات المتباعدة أمارة على بعدها عنه، والرغبة . أيضا- في طي تلك الصفحة .

وقولها: (دخل رسول الله (ﷺ) علينا ...) جواب (بين)، وهو وما يأتي بعده يمثل المفاجأة التي جعلت (بينا) تقدمة لها، وقولها: (فسلم ثم جلس) رتبت فيه السلام على الدخول من غير مهلة، وذلك ديدنه(ﷺ)، ولكنها عطفت الجلوس على السلام بـ (ثم) كما عطفت من قبل قوله: "كيف تيكم" على ما قبله بـ (ثم) لتشير إلى أن ثمة فاصلًا بين السلام وما يأتي بعده، نتأمل فيه خلجات نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها) ومدى ترقبها لما يحصل من رسول الله (ﷺ) بعد دخوله وسلامه، وما ينتج عن ذلك الترقب من تباطؤ زمن الحدث الذي يفصل المرء عما يترقب حدوثه.

وقولها: (ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها) قلت إن هذه الجملة تعد باعثًا من بواعث المفاجأة التي هيأت لها أم المؤمنين (رضي الله عنها) بقولها: (بينا نحن على ذلك ...) وهو . أيضا . داعي التباطؤ والترقب الذي دل عليه حرف العطف (ثم) في قولها: (ثم جلس...)؛ لأنه يشير إلى تلك المدة التي انقطع فيها رسول الله (ﷺ) عن الجلوس عند أم المؤمنين (رضي الله عهنا) وأثر ذلك في نفسها (رضوان الله عليها)، وطباق السلب في قولها: (جلس ... ولم يجلس) يكشف عن الصراع النفسي الذي يعتمل في صدر أم المؤمنين (رضي الله عنها) نتيجة تباين هذين الحالين، والموقفين المتناقضين، فهو يريبها أنها لا ترى من رسول الله (ﷺ) اللطف الذي كانت تراه منه حين

تشتكي، ويؤلمها أن تكون موضع شك عند رسول الله (ﷺ)، وهي هنا تفاجأ بدخوله (ﷺ) بعد هذا الانقطاع، إذ لم يدخل عليها منذ قيل ما قيل .

واسم الموصول في (قيل ما قيل) يعكس شدة هذا القول على نفسها (رضي الله عنها) وعظم وقعه على المجتمع المسلم، وكيف أنه ذاع فيهم وانتشر، وخاض فيه كثير من الناس وتخاصم الأنصار حتى همّوا أن يقتتلوا، وليس بعد هذا من خطر وشدة، رغم أنه مجرد قول قيل، فالبناء للمجهول في الموضعين (قيل ما قيل) يكشف عن ضعفه وهوانه، وعدم موافقته للواقع.

وجملة: (وقد لبث شهرًا لا يوحي إليه في شأني) معطوفة على الجملة التي قبلها وهما في موقع الحال، وما أكثر الجمل الحالية في هذا الحديث والتي تعد خصيصة من خصائص بنائه التركيبي، تعمل على كشف خبايا النفوس، ونقل أدق التفاصيل لأمر اهتز له بيت النبوة .

ولا يخفى ما يحمله التنكير في قولها (شهرًا) من إحساس بهذا الشهر يغاير الإحساس بسائر الأزمنة، تتثاقل فيه الأيام، ويحمل كل يوم فيه ألوانًا من المعاناة لآل بيت النبيّ (ﷺ) تختلف عما يحمله سابقه ولاحقه، وكأنه صار شهرًا خاصًا غير ما يتعارفه الناس، إضافة إلى ما يشعره لفظ اللبث من استطالة زمن الفعل، فتلك اللفظة تستخدم فيما طال زمانه، واشتد وقعه، قال تعالى:﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ يوسف: ٤٢ وقال ـ تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ العنكبوت: ١٤، بخلاف المُكْث، فإنها للمدة القصيرة، قال– تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ النمل: ٢٢، وأما قوله تعالى–: ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ البقرة: ٢٥٩، فإنه جاء مشاكلًا لقوله: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ وقد جاء على بابه؛ لأنه متعلق بالمدة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾.

فالتعبير باللبث هنا أضاف شعورًا باستطالة هذا الشهر نتيجة تثاقل الأحزان والآلام التي تخللت هذا الشهر .

وقولها : (في شأني) نصٌّ على عدم نزول شيء من الوحي يتعلق بما يقوله الناس فيها، دون نظر إلى ما ينزل به الوحي من أمور أخرى، وهذا يعكس شدة تطلعها (رضوان الله عليها) لتبرئة الله لها، بعد اليأس من براءة الناس لها .

والفاء في قولها: (فتشهد رسول الله (ﷺ) ...) عاطفة على جملة (ثم جلس)، وترتب التشهد على الجلوس ترتيبًا من غير مهلة، والجمل التي بينهما قيود ومتعلقات للجملة الأولى، من شأنها نقل الأحوال التي اعترت المتكلم، والتشهد في هذا الموقف يعني التبرؤ من كل حول إلا حول الله (ﷻ) وتسليم مطلق لألوهيته (ﷻ) وحكمه وقضائه، وإرجاع النفس إلى بذرة الإيمان الأولى التي شهدت بربوبية الخالق (ﷻ) والخضوع لقيوميته "فافتتاحه كلامه (عليه السلام) بالتشهد، يعني أن ما يقوله ويحض عليه أو يكف عنه، إنما هو راجع إلى أمر الله ونهيه، وأننا لا نقبل أمرًا ولا نهيًا إلا أن يكون راجعًا إلى الله سبحانه ..." (١).

وقولها: (حين جلس) قيد للتشهد، يظهر تعلق النفس بهذا الجلوس، الذي ظهرت فيه براءتها؛ لذا أخذت تكرره في كل مقطع من مقاطع الكلام في هذا المقام، وكأنه الجلوس الذي استقر معه كل شيء وسكن معه كل ثائر .

وحرف العطف (ثم) في قوله : (ثم قال ...) هو أخو العاطف في قولها : (فسلم ثم جلس ..) من حيث الدلالة على شعور المتكلم بتباطؤ الزمان واستطالته نتيجة الترقب والحذر من ذكر المعطوف عليه . وهو هنا ما تضمنه قوله (ﷺ) :

«أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري . د/ محمد أبو موسى : ٢٧٢.

وحرف النداء في قوله (ﷺ): " يا عائشة ..." يكشف عن الوحشة التي حدثت بين النبي (ﷺ) وأم المؤمنين (رضي الله عنها)، والمقطع كله على لطف مسلكه، وهدوء طبعه، فإنه يمثل مفاجأة وصدمة لها (رضي الله عنها)، فمع شدة غيرته (ﷺ) إلا أننا نلمح من وراء تلك الألفاظ ووقعها في الآذان وعذوبة جريانها على اللسان نلمح جانب اللطف في كلامه (ﷺ) فلا نرى ذكرًا لفراق، ولا تعنيفًا، وإنما استغفارًا وتوبة، وفتحًا لأبواب القبول عند الله بالاستغفار والتوبة، وهذا كلام يصدر من مشكاة النبوة وليس من علاقات البشر.

فقوله (ﷺ): "إنه بلغني عنك كذا وكذا" كلام مختصر جدًّا، ومليء بالإيحاءات والإشارات، ويمثل مقدمة لما يأتي بعده، ونهاية لما ذكر قبله، وهو أول ما واجه به رسول الله (ﷺ) زوجه أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) فوق قوله: " كيف تيكم"، والضمير في (إنه) هو ضمير الشأن الذي يهيئ الأسماع إلى خطر ما يأتي بعده من كلام ، وهو هنا قوله : " بلغني عنك كذا وكذا "وعند مسلم : "قد بلغني" بزيادة حرف التحقيق (قد) مما يشي بشيوع ما بلغه عنها، وأنه بلغ في آذان الناس حد الأمر المقرر، وقوله : "كذا وكذا" كناية عما يتحدث به الناس من أمر الإفك، تحاشيًا لنسبة ما يقال لها مباشرة، وحفظًا للسان من أن يجري عليه ما يشين أم المؤمنين (رضي الله عنها) لمجرد شك فيه .

وأما قوله (ﷺ): "فإن كنت بريئة ..." فقدم فيه جانب البراءة؛ لما يعرفه رسول الله (ﷺ) ويتحققه من طهارتها وعفتها، وجاء التقييد بـ (إن) في قوله: "إن كنت بريئة..." يعكس حالة الشك وعدم القطع ببراءتها (رضوان الله عليها) والتي اعترت رسول الله (ﷺ)، ولم يسلم منها والداها . أيضا .، فلم يعد مما يدفع عنها ما يقوله الناس إلا ما يُتعارف عنها في سابق عهدها من عفة وطهارة، وعليه فإن التقييد بـ(إن) هنا يرسم شدة مواقف الاتهام التي

سوغت للخائضين في حديث الإفك خوضهم، ومع ذلك فإنه لو كان هناك ما يبرئ ساحة أم المؤمنين فإن الله (ﷻ) سيظهره مهما دقّ وخفي.

وقوله:" وإن كنت ألممت بذنب " يعكس التقييد فيه ما تعاهده رسول الله (ﷺ) من أهل بيته من عفة وطهارة ونزاهة تمنعهم من مقارفة الآثام خاصة فيما يتعلق بفاحشة مثل ما يتقول به أهل الإفك، وإن وقع من ذلك شيء فإنه سيكون على خلاف العادة، وعلى وجه مقاربة الذنب وليس الوقوع فيه، وذلك على ما تقتضيه الدلالة المعجمية للفعل (ألمّ) في قوله: "ألممت بذنب" فحقيقة الإلمام مقاربة الذنب والإتيان بالشيء على خلاف العادة(١).

وجملة "فاستغفري الله وتوبي" في موقع الجواب لقوله : "إن كنت ألممت بذنب" وجملة : "فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه" متولدة من جملة الجواب قبلها، وهي بمثابة الحجة والدليل عليها، وقلت إن هذا الكلام صادر من مشكاة النبوة، التي يعنيها طهارة القلوب قبل الأبدان، وتخليص العبد من عقوبة الآخرة قبل عقوبة الدنيا، وأن المهم هو ما بين العبد وربه، ومن ثم اتسعت دائرة الخطاب لتشمل كل من ألمّ بذنب، فأقبل على الله مستغفرًا تائبا " فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه" وعند مسلم: "إذا اعترف بذنب" ليعم كل ذنب، فإنه متى اعترف به العبد وتاب، تاب الله عليه، وحرف العطف (ثم) في قوله (ﷺ): "ثم تاب" تعكس أوقاتًا وأزمانًا قضاها ذلك المذنب المعترف بذنبه في الندم والاستغفار يجاهد نفسه، ويعتصر قلبه حتى يخلص من درن ذلك الذنب، فيكون ذلك أدعى ألا يرجع إلى الذنب مرة أخرى.

ولا يخفى على كل شريف عفيف وقع مثل ذلك الكلام على النفس، خاصة حينما يصدر ممن هم أعرف الناس بعفته وطهارته، فتقول (رضي الله عنها):

---

(١) لسان العرب . مادة (لمم)

"فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً".

قلص الشيء يَقْلِصُ قُلُوصًا: تدانى وانضم وارتفع ونقص وانقبض[1] كل ذلك من معانيه، وكلها محتملة هنا؛ لأنها ترمي إلى انقطاع سيل الدمع الذي استمر ليلتين ويومًا- كما ذكرت (رضوان الله عليها) - وما ذلك إلا لاستعظام ما سمعت من رسول الله (ﷺ) ، فإن الحزن والغضب إذا أخذا حدّهما فُقِد الدمع لفرط حرارة المصيبة[2]، ومبالغة في انقطاع الدمع وجفافه في مآقيه جاء قولها: (حتى ما أحس منه قطرة)، فقد وصل انقطاع الدمع إلى غاية ما يمكن أن يشعر به المرء من انقطاع دمعه، وهذا ما تشير إليه (حتى)، ونفي الإحساس بـ (ما) يوقفنا على امتداد هذا النفي والدخول في حالة شعورية تنسي المرء كل ما سبق من آلام بعد حلول الألم الجديد، وهو هنا ما سمعته من رسول الله (ﷺ) وما يوحي به من شك في أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وأرادت أن تشعرنا بشيء من تلك الشدة وثقل الكلام في تضعيف كلمة حتى، والإشارة إلى إنهاء كلامه (ﷺ) بقولها: (قضى)، وقضاء المقالة يعني أن حكمًا ما قد استقر في نفس القائل وصل إلى حد القضاء، مما كان له عظيم الأثر في نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها)، والتنكير في (قطرة) يشير إلى أدنى ما يمكن أن تسكبه العين من الدمع، وهذه الجملة وما قبلها تعكس ردة الفعل النفسية التي اعترت أم المؤمنين (رضي الله عنها) عقب كلامه (ﷺ)، ثم أعقبت تلك الجملة بما يجسد ردة الفعل التي بدت على ألفاظها، فقالت:

---

(١) تاج العروس . مادة (ق ل ص).

(٢) ينظر: المنهاج للنووي : جـ١٧/صـ١١١، وفتح الباري : جـ٨/صـ٤٧٥ .

"فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) عَنِّي فِيمَا قَالَ: فَقَالَ أَبِي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فِيمَا قَالَ: قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)".

الفاء في قولها: (فقلت) تكشف عن ردة الفعل السريعة التي أعقبت كلام رسول الله (ﷺ) وعجزها عن الجواب، وهذا المشهد يعد عقدة الحديث وموضع تجمع خيوطه السابقة واللاحقة، فهنا تتأزم الأحداث، وتتصارع المشاعر والأحاسيس، ويعجز اللسان عن إخراج ما يمور في الصدر، ومن ثم تحيل أم المؤمنين (رضي الله عنها) الجواب إلى أبيها وأمها وهما أعرف الناس بها، وابتدأت بأبيها لمنزلته من رسول الله (ﷺ) فقالت : (أجب رسول الله (ﷺ) عني فيما قال)، وفعل الأمر هنا (أجب) لا يعدو أن يكون صرخة مستنصر ألجمه هول ما يسمع عن رد ما يتهم به ، فلجأ إلى من يعلم أحواله السابقة ليدفع عنه ما يقال، وتأمل قولها: (عني) وما تحمله تلك اللفظة من الدلالة على الشعور بثقل الهمّ وشدة الخطب الجاثم على أم المؤمنين (رضي الله عنها)، والتي تعجز بسببه عن الإبانة ودفع التهمة، أضف إلى تلك اللفظة ما يحمله اسم الموصول في قولها: (فيما قال) وما يشير إليه من هول ذلك القول وشدته، فالأسلوب كله ينضح بتلك الشدة التي اعترت أم المؤمنين(ﷺ) فعقدت لسانها عن الجواب، ومنعت العين عن البكاء .

أما أبو بكر (ﷺ) فلم يكن يعلم فوق ما يعلم رسول الله (ﷺ)، من عفة بيته وطهارتهم، ولكن أصابه ما أصاب ابنته من هول الموقف وشدته، فعجز لسانه . أيضا. عن الجواب، "حيث إنه في موقف يحار فيه أعظم الرجال، ماذا يقول، وبماذا يجيب، إذا نظر هنا وجد رسول الله (ﷺ) ومقامه فوق كل مقام، وإذا نظر هناك وجد عائشة ابنته الكريمة الشريفة المطهرة، تتعرض لهذه

التهمة الشنيعة، أمران يحق للمرء أن يقول أمامهما لا أدري ما أقول"[1]، فقال (ﷺ): (والله ما أدري ما أقول)، فنفى درايته لما يقوله لرسول الله (ﷺ) نفيًا متوجهًا للحال، فهو لا يعلم فوق ما يعلمه رسول الله (ﷺ)، وإن كان يتحقق من براءتها، إلا أنه كثير الإتباع لرسول الله (ﷺ)، فأجاب بما يطابق السؤال في المعنى، أو لأنه يكره أن يزكي ولده. كما ذكر ابن حجر (رحمه الله)[2].

ولما رأت عائشة (رضوان الله عليها) من أبيها ما رأت، وسمعت منه ما سمعت، أحالت أمر الجواب إلى أمها، ومعلوم من طبائع الناس أن الأم أكثر الناس مسارعة إلى الدفاع عن أبنائها، وخاصة إذا كانوا على الحق، فهي تعلم براءة ابنتها، ولكن أصابها ما أصاب أبا بكر (ﷺ)، فعقد لسانها عن الجواب، إلا بما أجاب به الصديق (ﷺ) من نفي الدراية، وعدم الحصول من العلم فوق ما يعلمه رسول الله (ﷺ)، فمعين الجوابين واحد، وهو النفس المنقادة لله ولرسوله، فلا تقدم على أمر الوحي أمرًا.

وفي هذا الموقف العصيب الذي عجزت فيه الألسنة عن الكلام، أخذت أم المؤمنين (رضي الله عنها) تحمل نفسها على الكلام بما يدفع عنها ما يشيعه الناس واستقر في وجدانهم، فتقول (رضي الله عنها):

"**فَقُلْتُ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ: لاَ أَقْرَأُ مِنَ القُرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ: لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، لاَ تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي، فَوَاللَّهِ لاَ أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]**"

---

(١) ينظر: منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري : حمزة محمد قاسم . تحقيق/ عبد القادر الأرناؤوط . (مكتبة دار البيان . دمشق . سوريا، ومكتبة المؤيد . الطائف . ١٤١٠هـ . ١٩٩٠م) جـ٤/صـ٤١.

(٢) فتح الباري: جـ٨/صـ٤٧٥.

جملة (وأنا جارية حديثة السن) واقعة موقع الحال التي تبرز ضعف أم المؤمنين (رضي الله عنها) في هذا الموقف عن مجابهة أحداثه، وحديثة السن توكيد لفظي لجارية، وجملة (لا أقرأ من القرآن كثيرًا) بمثابة التوكيد المعنوي لما قبلها، وقد ذكر ابن حجر (رحمه الله) أن الغرض من قولها: (لا أقرأ من القرآن كثيرًا) هو الاعتذار عن نسيان اسم يعقوب (عليه السلام) فيما سيأتي ذكره(١).

وجملة: (إني والله لقد علمت: لقد سمعتم هذا الحديث...) مقول القول، ويبدو واضحًا على هذا البناء التركيبي ما اعترى أم المؤمنين من شدة وحيرة حملتها على صوغ تلك الجملة على هذا الوجه من الصياغة، فكلتا الجملتين (لقد علمت، لقد سمعتم) واقعتان موقع جواب القسم، والأولى مؤكدة لعلمها، والثانية مؤكدة لسماعهم، وعند مسلم: (والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم هذا الحديث) فجاءت بلفظ المعرفة دون العلم، والفرق بينهما ـ كما ذكر العسكري . "أن المعرفة أخص من العلم؛ لأنها العلم بعين الشيء مفصلًا عما سواه، والعلم يكون مجملًا ومفصلًا، وقيل: المعرفة: إدراك البسائط والجزئيات، والعلم: إدراك المركبات والكليات، وقيل: المعرفة قد تقال فيما يدرك آثاره، وإن لم يدرك ذاته، والعلم لا يكاد يقال إلا فيما أدرك ذاته"(٢).

وعليه فإن رواية البخاري أقرب إلى تصوير حال أم المؤمنين (رضي الله عنها) وقت وقوع الحدث، وما ترتب على ما سمعته من رسول الله (ﷺ) وعجز أبويها عن الجواب، من موران النفس واضطرابها، وقلقلها وحيرتها، وأما رواية مسلم فهي أقرب إلى تصوير حالة أم المؤمنين (رضي الله عنها) عند سرد الحادثة . أي بعد وقوعها بزمن طويل . ومن ثم كان وقع الكلام عند مسلم أهدأ منه عند البخاري.

(١) فتح الباري : جـ٨/صـ٤٧٥.
(٢) الفروق اللغوية : ٥٠١، ٥٠٢ .

وتأكيد السماع بـ (قد) بعد دخول اللام عليها في قولها : (لقد سمعتم) يعكس كثرة ترداد حديث الإفك على الأسماع وأثر ذلك في نفوسهم، فهو رغم ضعفه وعدم أصالته في باب الحقيقة . وهذا ما أفاده اسم الإشارة (هذا) . فإنه لكثرة ترداده على الآذان قد بلغ الغاية في الاستقرار في عقول الناس وقلوبهم، وهذا ما جبلت عليه طبائع الناس، فإن كثرة ترداد الحديث أدعى إلى تصديقه حتى لو لم يكن له واقع يطابقه، ومن ثم جاء قولها: (حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به) يعكس تلك الحقيقة الواقعية، من تصديق الأمور لمجرد كثرة السماع لها.

وقولها: (وصدقتم به) تأكيد لاستقراره في النفس، ولازم من لوازمه، ومجيء الواو بين الخبرين يكشف عن التمايز بينهما، وأن إحساسا مغايرًا بالخبر الثاني حمل المتكلم على الفصل بينهما بالواو؛ ليدلنا على أن ثمة مغايرة بين الخبرين، يجب أن نلفت لها، والمغايرة هنا تكمن فيما يثيره الخبر الثاني من غرابة في نفس المتكلم، حيث إن المحدث عنهم هم أعرف الناس بأحوال أم المؤمنين (رضي الله عنها) وأخبرهم بعفتها وطهارتها، فكان غلبة ظنها (رضوا الله عليها) أن لا يكون لحديث الإفك موقع صدق عندهم، حتى وان غابت الأسباب الظاهرة لبراءتها، وكثر حديث الناس فيها، فلما بدا لها من كلام رسول الله (ﷺ) ومن عجز أبويها عن الجواب حين أحالت الجواب إليهما، أُسقطت في يدها، وحملت كلام رسول الله (ﷺ) وسكوت أبويها على تصديق ما يقال في حقها، وعليه جاء تمييز خبر الصدق بما يقال عن خبر استقراره في النفس.

وجاء قولها : (فلئن قلت لكم إني بريئة، لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني) متولدًا مما قبله، ونتيجة له، فاستقرار ما سمعوه من حديث الناس في قلوبهم وتصديقهم به يجعلهم على تلك الحال من تصديق ما تعترف به وهي منه بريئة، وتكذيبهم لها إن دفعته عن نفسها.

وتأمل قولها: (إني بريئة) وما فيه من توكيد يكشف عن امتلاء النفس صدقًا بما تقول، وحشدًا لكل ما من شأنه أن يزيل شوائب الشك والإنكار من نفوس المخاطبين، فهي جملة اسمية، تصدرها حرف التوكيد (إن) متصلًا بضمير التكلم؛ لتعلق مضمون ما دخل عليه التوكيد بالمتكلم ذاته، ثم ضع هذه الجملة مقابل قولها: (ولئن اعترف لكم بأمر) وما تضمنه من اعتراف خالٍ من المؤكدات، بل جاء التنكير في (أمر) يكشف عن هوانه وضعفه وزواله عند التحقيق، ثم اقترن به ما يؤكد على بطلان ما تعترف به، وهو قولها: (والله يعلم...) وهي جملة جارية مجرى القسم، لتؤكد على فساد ما تعترف به، وأنها قد حملت على ذلك الاعتراف حملًا، وكم من معترف بأمر والله يعلم أنه منه بريء، وجملة (أني منه بريئة) واقعة موقع جواب القسم، وهي مؤكدة ـ أيضا . بما أكدت به جملة (إني بريئة) الأولى، وجارية على نسقها، وجملة القسم داخلة في الجملة الشرطية (ولئن اعترفت لكم)، وجواب الشرط قولها: (لتصدقني)، وجاء مقترنًا باللام الموطئة للقسم، رغم خلو جملة الشرط من التوكيد، واللافت . أيضاـ هو المفارقة التي أجرتها أم المؤمنين (رضي الله عنها) بين الجوابين، حيث جاء الجواب في الجملة الأولى (لا تصدقوني) خاليًا من التوكيد، على كثرة وجود المؤكدات في جملة الشرط (لئن قلت لكم إني بريئة) وجاء جواب الجملة الثانية مؤكدًا مع خلو جملة الشرط من المؤكدات إلا بما ينفي مضمون ما تعترف به؛ لتعكس حالة التناقض بين الموقفين، ومدى ما وصل إليه استقرار الأمر في نفوسهم وتصديقهم به، إلى الحد الذي لا تدفعه حجة مهما قويت، وتزيده الشُّبَهُ قوة وتوكيدًا مهما ضعفت تلك الشُّبَه.

وهنا تبلغ الأزمة ذروتها، فتعلن أم المؤمنين (رضي الله عنها) يأسها من نصرة أهل الأرض، وغياب الأدلة المادية التي ترد عنها طعن الطاعنين، ولم يعد حسن الظن، ولا العلم المسبق بما فيها من خير كافيًا في إظهار براءتها، فأخذت (رضوان الله عليها) تتلمس في أحوال الصالحين ما يشبه حالها، وهي الصغيرة حديثة السن، التي لا تحفظ من القرآن كثيرًا، فلم تجد إلا

أبا يوسف (عليه السلام)، حين أتاه أبناؤه بقميص أخيهم ملطخًا بالدماء، فأعلن صبره على تآمرهم، متبرئًا من كل عون إلا ما كان من قبل الله (عز وجل) فقالت (رضي الله عنها) : (فَوَاللَّهِ لاَ أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾)، والجملة مصدرة بالقسم، ومبنية على القصر بالنفي والاستثناء؛ أمارة على احتدام الموقف وشدته على ام المؤمنين (رضي الله عنها)، وأبو يوسف هو يعقوب (عليه السلام)، لم تتذكر اسمه؛ لحداثة سنها، وعدم حفظها من القرآن كثيرًا، وهو ما اعتذرت به في قولها: فقلت وأنا جارية حديثة السن، لا أحفظ من القرآن كثيرًا. واستحضار حال يعقوب (عليه السلام) من باب التشبيه بين الأحوال، فقد شبهت (رضوان الله عليها) حالها في ضعفها وعجزها عن ردّ ما يشاع عنها بحال أبي يوسف (عليه السلام) حين عجز عن ردّ مقالة أبنائه وادعائهم أن الذئب أكل أخاهم، ثم اتخذت من جوابه (عليه السلام) الذي حكاه القرآن عنه جوابًا لها، حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ يوسف: ١٨.

والصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه إلى الخلق، والجملة خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير : فصبري صبر جميل[1]، وجملة (والله المستعان على ما تصفون) معطوفة على جملة (فصبر جميل)، فقد جمع في تقويه على شدته بين الصبر وطلب المعونة من الله (عز وجل)، فالمستعان هو المطلوب منه العون على احتمال الشدائد [2]، وشدة يعقوب (عليه السلام) تتمثل فيما فعله أبناؤه متخذين من قميص أخيهم الملطخ بالدماء دليلًا على مقالتهم (أكله الذئب) ولما لم يكن ليعقوب (عليه السلام) حجة يدفع بها مقالة أبنائه ركن إلى الصبر طالبًا المعونة من الله (عز وجل) في إظهار حقيقة ما خفي عنه .

(١) إكمال المعلم : جـ٨/صـ٢٩٩ .

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي. المتوفى سنة (٨٨٥هـ). (دار الكتاب الإسلامي القاهرة . دون تاريخ) جـ١٠/صـ٣٢.

وشدة أم المؤمنين (رضي الله عنها) تتمثل فيما قاله أهل الإفك، واتخذوا من قدومها مع صفوان بن المعطل (ﷺ) حجة لهم فيما يقولون، ولما لم يكن لها (رضوان الله عليها) من حجة تدفع بها عن نفسها غير ما يعرفه الناس عنها من طهارة وعفة، ركنت . أيضا . إلى الصبر، متعلقة بمعونة الله (ﷻ) في رفع ما نالها من أذى ، محوّلة وجهها عن الخلق ، إلى الخالق (جل وعلا) لتأتيها البراءة من فوق سبع سموات .

تقول (رضي الله عنها): **(ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَجْلِسَهُ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ العَرَقِ مِثْلُ الجُمَانِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ»)**.

حرف العطف (ثم) في قولها : (ثم تحولت ...) لا يعكس تباعدًا زمنيًا بين مقالتها السابقة وتحولها في مضجعها، وإنما يعكس معاناة نفسية يتباطأ معها وقع الأحداث، فيتثاقل مرورها على النفس، وفي رصد حركة التحول والاضطجاع كشف لليأس المطبق على النفس من نصرة الخلق إليها بعد ما رأته وسمعته من رسول الله (ﷺ) ووالديها، ونفضها يد المعونة منهم .

وقولها: (والله يعلم) واقعة موقع القسم ، وجملة (أني حينئذ بريئة) جواب القسم، والتقييد بالظرف (حين) مبالغة في إثبات البراءة لها، وقولها: (وأن الله مبرئي ببراءتي) معطوف على ما قبله وداخل في حيزه من وقوعه جوابًا للقسم السابق، وهذا القول يعكس امتلاء نفس أم المؤمنين (رضي الله

عنها) وثقتها بتبرئة الله لها، والقسم هنا جاء لتوكيد هذا اليقين، وزيادة تحققه، وهذا مما يستحسن فيه التوكيد لتعلقه بالأمور الغائبة [١].

فهي هنا تقسم على أمرين: **الأول**: براءتها، و**الثاني**: تبرئة الله لها، وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان، حيث تبلغ ثقة العبد بربه أن يقسم به عليه، ويكون من تمام رضا الله (ﷻ) على العبد أن يبرّ قسمه، وقولها: (ببراءتي) بعد قولها: (مبرئي) تأكيد فوق تأكيد مما يعكس امتلاء النفس يقينًا بتبرئة الله (ﷻ) لها.

و(مبرئي) اسم فاعل، والغرض منه تحقيق وقوع الفعل، "والباء في ببراءتي، للسببية، والمعنى أن الله مبرئي عند الناس بسبب أني بريئة منه في نفس الأمر"[٢]، ولكن أم المؤمنين (رضي الله عنها) قد وضعت لظنها في إظهار براءة الله لها حدًّا معينًا لم يتجاوزه إدراكها، فقالت:

(ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر).

جملة: (ولكن والله ما كنت أظن ..) استدراك قصد منه تخصيص العموم في قولها: (وأن الله مبرئي ببراءتي)، وتحديد لجهة إظهار تلك البراءة من قبل الله (ﷻ)، والظن هنا على بابه من رجحان أحد طرفي التجويز[٣]، والمقصود نفي رجحان هذا الطرف، والمقصود بالوحي هنا هو كلام الله المنزل على رسوله (ﷺ) والمتعبد بتلاوته، وهو القرآن الكريم، وهو شرف ما بعده

---

(١) التبيان في أيمان القرآن . أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية .المتوفى سنة . (٧٥١هـ) . تحقيق /عبد الله بن سالم البطاطي (دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة. ط: الأولى : ١٤٢٩هـ) صـ٤٠ .

(٢) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري . شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني . المتوفى سنة (٧٨٦هـ) (دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان . ط: الثانية . ١٤٠١هـ . ١٩٨١م) جـ ١٦/صـ٥٩ .

(٣) الفروق اللغوية : ٣٠٣ .

شرف، حين ينزل الله في شأن عبد من عباده كلامًا يتعبد به لله (ﷻ)، ويتقرب به إليه، والتنكير في قولها (وحيًا) يكشف عن شيء من جوانب هذا الشرف، والتعظيم لأمر الوحي.

وجملة: (لشأني في نفسي ...) متصلة بالتي قبلها اتصال الجواب بالسؤال، فالتي قبلها مثيرة لسؤال عن سبب عدم الظن أن ينزل الله في شأنها وحيا يتلى، فجاء قولها: لشأني في نفسي ... يجيب عن هذا التساؤل، ويلبي رغبة المتلقي في معرفة ما خفي من معاقد الكلام الأول.

وشان الصالحين دائما أن يتهموا أنفسهم، ومن ثم قالت (رضي الله عنها): (لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر ...) والكلام هنا مؤكد باللام، وقولها: (كان أحقر) إشارة إلى شعور جديد واعتداد بالذات حصل لأم المؤمنين بنزول براءة الله (ﷻ) لها، وكلامه في شأنها، نلمح فيه طيّا لتلك الحقبة التي عاشتها أم المؤمنين بقسوتها ومرارتها، فقد كان شأنها في نفسها قبل نزول براءتها وكلام الله في شأنها، أحقر من أن يتكلم الله فيها بأمر، أما وقد تكلم الله (ﷻ) وأنزل براءتها، فهذا إحساس آخر ترمي كلمة (كان) إلى حصوله عند أم المؤمنين (رضي الله عنها).

وأن والفعل في قولها: (أن يتكلم) في تأويل مصدر، والتقدير: من كلام الله، والمضارع هنا يشير إلى ديمومة هذا الكلام بنزوله على رسوله الله (ﷺ) وحيًا يتلى منذ نزل إلى قيام الساعة. وتلك القيمة لم تكن لتحصل لو عبر بالمصدر دون الفعل.

وقولها: (ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله (ﷺ) في النوم رؤيا يبرئني الله بها) من متولدات جملة: (وأن الله مبرئي ببراءتي)، وبيان لغاية ما كانت ترجوه من إظهار الله لبراءتها، والرجاء هنا مستعمل على بابه من طلب ما حبب للنفس وهو ممكن الوقوع[1]، والرؤيا لا تكون إلا في النوم، والتقييد بها

(١) النحو الوافي : جـ١/صـ٦٢٢.

هنا جاء ليضفي مزيدًا من التوكيد على تعلق أم المؤمنين (رضي الله عنها) بحصول براءتها، وغاية رجائها أن يحصل ذلك برؤيا يراها رسول الله (ﷺ) في نومه، دون امتداد طمع إلى نزول وحي يتلى أو غيره من وسائل التلقي عن الله (ﷻ)، فالتقييد هنا لتحقيق الرجاء في حصول البراءة في النوم لا في غيره، والتنكير في (رؤيا)، يعكس شدة تعلق أم المؤمنين (رضي الله عنها) بحصول تلك البراءة حتى ولو كانت بأدنى رؤيا يراها رسول الله (ﷺ) .

وتكرار إسناد البراءة لله (ﷻ) وإضافتها إليه وحده في قولها : (يبرئني الله بها)، تأكيد على يأسها من نصرة الناس لها، وتعلقها بالله وحده في تحقيق ما تصبو إليه من براءة، حتى لا يكون لأحد من خلق الله عليها في ذلك الشأن من فضل.

ولا تلبث (رضوان الله عليها) أن يأتيها الفرج من السماء بما كانت ترجو، وفوق ما كانت ترجو، تقول (رضي الله عنها):

(فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَجْلِسَهُ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ).

وهذه الجملة تمثل بداية انفراجة الأحداث المتأزمة التي سبقتها، وهي معطوفة على قولها: (وأن الله مبرئي ببراءتي) وما بينهما من جمل متفرع عن الجملة الأولى؛ ليكشف أحوال النفس في ترقب تلك البراءة، وتصدير الجملة بالقسم تأكيد على مضمون ما دخلت عليه، وحفاوة المتكلم بما دخل عليه القسم، وهو جدير بتلك الحفاوة هنا؛ لتعلقه بحصول براءتها (رضوان الله عليها) بعد طول انتظارها .

وقولها: (رام) من: رامَ يَرِيمُ ريْمًا، بمعنى فارق، وليس من رَامَ يَرُومُ روْمًا، بمعنى طلب(١)، وإيثار التعبير به دون (فَارَقَ)؛ لما يحمله وجازة لفظة وقلة حروفه من الإشارة إلى عدم حصول أدنى مفارقة من رسول الله (ﷺ)،

(١) لسان العرب . مادة (ريم) و (روم).

وقولها: (ولا خرج أحد من أهل البيت...) تأكيد على ثبات الحالة التي كانوا عليها قبل نزول الوحي، وعندما تحولت (رضي الله عنها) واضطجعت، كل ذلك دليل على لطف الله بها، وأنها لجأت إلى ركن شديد حين استعانت به (ﷻ)، وقولها : (حتى أنزل عليه) بما يحمله المد في حتى ودلالة الإنزال، يكاد يشبه في وقعه من السمع صيبًا من السماء على أرض أصابها الجدب فاهتزت وربت، وهكذا كانت أم المؤمنين (رضي الله عنها) قبل ذلك الإنزال، أصابها من جدب الحزن، وشظف المرض ما زوى بها وحولها عن مواجهة الناس حتى أنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات.

ثم أخذت أم المؤمنين (رضي الله عنها) تصف مشهد التلقي عن الله، وما يعتري رسول الله (ﷺ) من شدةٍ حال التلبس بنزول الوحي، والغرض من رصد تلك الحالة هو بيان أهمية ما نزل به الوحي، فقالت (رضي الله عنها): (فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء).

والمقصود بالأخذ بيان ما كان يعتريه (ﷺ) عند نزول الوحي، والتعبير بالأخذ هنا لما فيه من الدلالة على قوة التلقي والتحمل لأمر الله (ﷻ) ووحيه، والبرحاء هي الشدة، وقيل العرق، وهو من مستلزمات تلك الشدة[1]، وقولها: (حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان) إشباع لتصوير معنى الشدة التي تحصل لنبي الله (ﷺ) عند نزول الوحي، بقصد تأكيدها، والمضارع في (يتحدر) يستحضر لنا هذا المشهد، ويمثله أمامنا وكأننا نراه مع من رآه، و(الجمان) هو اللؤلؤ، شبهت حبات عرقه (ﷺ) به في صفائها ونقائها، وعظم حجمها، وقولها: (وهو في يوم شات) حال قصد به إشباع معنى التشبيه، وإظهار شدة نزول الوحي على رسول الله (ﷺ) وبيان أثره الجسدي على رسول الله (ﷺ)، بما يعني أن التلقي عن الله (ﷻ) له سمت خاص وطبائع وأحوال مخصوصة، لا تشبه غيرها من الأحوال التي يكون الإنسان عليها، وإن كان هذا في الوحي

(١) فتح الباري : جـ٨/صـ٤٧٨ .

المنزل على الرسل، فإن فهم ذلك الوحي يحتاج من المتصدر له . كذلك . إلى هيئة مخصوصة وأحوال مخصوصة تهيئة لفهم ذلك النص، وكشف مراد الله من الخلق.

و(من) في قولها : (من ثقل القول) للتعليل[1]، فما بعدها علة لما قبلها، ولا شك في أن مجيء الكلام معللا يورثه لدى المخاطب تأكيدًا وتحقيقًا وتثبيتًا له في نفسه على وجه لا يكون فيه إذا ورد خاليًا من التعليل، والثقل لا يكون إلا للماديات، وعندما يوصف به أمر معنوي يكون المقصود بيان شدة أثره على النفس، وذلك عن طريق استعارة ما للماديات للمعنويات، ولا مانع من أن ينتقل أثر القول إلى الجسد ذاته، فقد ورد ما يدل على تثاقل جسده (ﷺ) عند نزول الوحي عليه[2]، والقول الذي أنزل عليه هو ذاته المصرح به والمشار إليه في قولها: (حتى أنزل عليه)، فكان يمكن أن تقول: من ثقل ما أنزل إليه، ولكن مجيء الكلام على هذا الوجه من النظم يعكس شدة تعلقها بهذا القول الذي نزل في شأنها، وأنه مما يطيب الحديث به، ويستلذ ترداده على الألسنة .

وقولها: (فسري عن رسول الله (ﷺ) وهو يضحك) معطوف على قولها: (فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء)، والجمل التي بينهما من متعلقات الجملة الأولى، ومعلوم أن الذي نزل في شأن براءة أم المؤمنين (رضي الله عنها) هو الآيات العشر التي تبدأ من قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ النور: ١١، وسيأتي ذكر ذلك في الحديث، المهم أن تلك الآيات العشر لا شك في أنها أخذت حيزًا من الزمن، فكان المناسب لظاهر المقام أن

(١) ينظر: الجنى الداني : ٣١٠.

(٢) ينظر: صحيح البخاري / جـ٤/صـ٢٥، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ النســـاء: ٩٥، حديث رقم: ٢٨٣٢.

يأتي العطف بـ (ثم) يعكس تلك المدة، ويرسم ما صاحبها من شدة نزول الوحي على رسول الله (ﷺ)، ولكنها عطفت هنا بالفاء فقالت: (فسري عن رسول الله (ﷺ)؛ طيًّا لذلك الزمن المستغرق في نزول الوحيّ، وغضًّا للطرف عن الشدة التي صاحبت نزوله؛ تعجيلًا بذكر التسرية بما أعقبها من بشارة رسول الله (ﷺ) لها بتبرئة الله لها، وعند مسلم : (فلمّا سري ...) بزيادة (لما) بما فيها من تضعيف؛ كشفا لشيء من الزمن المستغرق في نزول الوحي وتعبيرًا عن الشدة التي صاحبته، وسبق القول بأن رواية البخاري في كثير من جوانبها تظهر أحوال النفس أثناء الحادثة، ورواية مسلم في كثير من جوانبها تظهر أحوال النفس عند وراية الحادثة، أي بعد هدوء النفس وثباتها.

وجملة (وهو يضحك) حال تبين هيئة النبي (ﷺ) حين سُرّيَ عنه، وتعد تلك الحال الومضة التي أضاءت ما حولها، وانفراجة العقدة التي سبقتها، ولبيان موقعها في الكلام وتميزها فيما جاءت في سياقه جاءت مقترنة بالواو وكأنها بذاتها خبرًا مستقلًا عما قبلها، فهي تريد أن توقفنا تارة مع التسرية عنه، وتارة مع ضحكه، وليس مع التسرية عنه وحدها حال ضحكة، والفرق بينهما كبير.

كما نلمح من وراء الجملة الحالية تلك رصدًا لحركة جسمية مصحوبة بدلالة نفسية توحي بها تلك الهيئة من حمل البشرى، والإيذان بجلاء الغمة التي غشيت بيت النبوة، والتي كانت أول كلامه (ﷺ) بعد التسرية عنه وهو يضحك . تقول (رضي الله عنها) :

(فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ»).

تأمل قولها (رضي الله عنها): (فكانت أول كلمة تكلم بها) وما تعكسه تلك الجملة من شعور الترقب الذي كانت تعيشه أم المؤمنين (رضي الله عنها) وكيف أنها كانت تنتظر تلك الكلمة وتتعلق بها، فهذه الجملة ليست مجرد خبر يروى، وإنما شعور يعتمل في نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها) وأرادت أن توقفنا عليه كما أحسته هي، وشعرت به هي .

والكلمة التي كانت أول ما تكلم به رسول الله (ﷺ) هي قوله: (يا عائشة أما الله فقد برأك) فكان أول ما طرق سمعها هو هذا النداء اللافت، فمع قربه (ﷺ) منها فقد جاءت أداة النداء (ياء) تعكس عمق تلك الأزمة التي وقعت وشدتها، وكيف أنها باعدت بين النبي (ﷺ) وبين أم المؤمنين (رضي الله عنها)، على الوجه الذي رأيناه من التنكر لها وغياب اللطف الذي كانت تعتاده منه (ﷺ) وعدم الجلوس عندها، وعند مسلم : (أبشري يا عائشة) بالتصريح بلفظ البشرى، وجعلها أنف الجملة التي قالها عقب التسرية عنه، ووضعها في قالب المضارع الذي يملأ حاضر أم المؤمنين (رضي الله عنها) ومستقبلها بما ساقه الله لها من الخير، وبعد تلك التهيئة جاء تفصيل البشارة في قوله : (أما الله فقد برأك) . وهذا الوجه من التركيب يجعل الأذهان دائما في حالة توقد وترقب لما يلقى عليها، فكان يمكن أن يقال: يا عائشة قد برأك الله، ولكن لو قيل ذلك لذهب عن النص ماؤه وحياته، النص الذي استدعى أحوال الناس مع أم المؤمنين (رضي الله عنها) وحال رسول الله (ﷺ) وحال أبويها معها (رضوان الله عليها) بلفظة واحدة، جعلت هؤلاء جميعًا في جانب، ورب العزة (ﷻ) في جانب ، وهي لفظة (أمّا) ، وتقدير الكلام: أما الناس فقد قالوا فيك ما قالوا، وأما الله فقد برأك.

والجمهور على أن (أما) في مثل هذا المقام فيها معنى الشرط، ويقدرونها بـ (مهما يكن من شيء) فحذف فعل الشرط وأداته وأقيمت (أمّا) مقامهما[1]، وهي بهذا التقدير تختصر المشاهد المؤلمة في ثنايا الحديث كله وتكتنزها، ثم تعصف بها كلها حين ظهرت براءة الله لها في أعلى مظاهرها وأجلّها، وذلك حين دخلت (قد) على الفعل الماضي (برأك)؛ لتضع حدًّا للأحداث، تقطع به ألسنة الخائضين، وتذبّ عن عرض أم المؤمنين(رضي الله عنها)، وتؤذن بطيّ هذا المشهد وبداية مشهد آخر تسترد فيه أم المؤمنين

(١) نظر : الجنى الداني : ٥٢٢ .

كرامتها، وتتوجه فيه بالشكر لله (ﷻ) المنزل براءتها، وتبين فيه ـ أيضا ـ موقفها من رسول الله (ﷺ)، وموقف أبي بكر (رضي الله عنه) ممن ناله منهم أذىً في ابنته، وقد كان يصلهم بالنفقة، ثم تكشف عن موقف بعض نسائه (ﷺ) ثم شهادتها في صفوان (رضي الله عنه) وكيف ختم له بالشهادة، في مشهد يمثل خاتمة الأحداث وإسدال الستار على تلك القصة . فتقول (رضي الله عنها):

(فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ . ﷻ، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ . تَعَالَى . : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ العَشْرَ الآيَاتِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ – إِلَى قَوْلِهِ – ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ». فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (ﷺ) فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالوَرَعِ، قَالَتْ: وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ، فِيمَنْ هَلَكَ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: «فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هَؤُلاَءِ الرَّهْطِ» ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: "وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ، قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

قولها (رضي الله عنها): (فقالت لي أمي ...) قدم فيه الجار والمجرور (لي) وفصل به بين فعل القول وفاعله، وذلك إبرازًا للذات المتحدث إليها، وهي هنا ذات أم المؤمنين (رضي الله عنها)، والتي أخذت ضمائر

الحديث عنها تظهر في الجمل المتتالية بعد تبرئة الله لها، وأما عن قول أم رومان (رضي الله عنها): (قومي إليه) فقد ذكر النووي (رحمه الله) أن المقصود أن تقوم إلى رسول الله (ﷺ) فتحمده وتشكره لنعمة الله التي بشرها(١)، ولكن التعبير بضمير النبي (ﷺ) في قولها: (قومي إليه) يحمل غلالات من المعاتبة لرسول الله (ﷺ) لتغيره على أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وهذا من غلبة الطابع الإنساني على النفس، رغم صحة العقيدة وصدق المتابعة لرسول الله (ﷺ) والذي بدا في جواب الصديق (رضي الله عنه) وجواب أم رومان (رضي الله عنها) حين طلبت أم المؤمنين عائشة أن يجيبا عنها على رسول الله(ﷺ) .

وتبدو نغمة تلك المعاتبة أوضح وأظهر في ردّ أم المؤمنين (رضي الله عنها) على أمها بقولها:(فقلت: والله لا أقوم إليه، فإني والله لا أحمد إلا الله ـ ﷻ .)، والفاء في قولها : (فقلت) تجعل الكلام الثاني مرتبًا على الأول، وليس متولدًا منه، على وجه ينبئ عن المسارعة إلى بيان المقصود، من غير أن تدع للمخاطب مساحةً لمسائلة نفسه والتطلع لمعرفة ما أجابت به أم المؤمنين (رضي الله عنها) أمها، ثم جاء نفيها لقيامها لرسول الله (ﷺ) مصدرًا بالقسم الذي يدل على امتلاء النفس واحتشادها بالأمر المقسم عليه، وامتداد الصوت بـ (لا) يعكس إشباع معنى النفي وامتداده في الحاضر والمستقبل، "وذلك كله من باب الإدلال عليهم والعتاب لهم؛ لكونهم شكُّوا في حالها مع علمهم بحسن طرائفها وجميل أحوالها، وتنزهها عن هذا الباطل الذي افتراه الظلمة"(٢).

وقولها: (فإني لا أحمد إلا الله)، مرتب على نفيها القيام لرسول الله (ﷺ)، ومسبب عنه، وهو توجيه لأمر الحمد لله . ﷻ، وقصر ذلك الحمد عليه وحده .ﷻ، الذي تفضل بإنزال براءتها من فوق سبع سماوات، وجاء القصر بالنفي والاستثناء، الذي هو رأس الباب، ولا يؤتى به إلا في مقامات التأكيد لما

(١) ينظر :المنهاج للنووي : جـ١٧/صـ١١٢ .
(٢) عمدة القاري : جـ١٣/صـ١١٢. بتصرف .

ينكره المخاطب ويدفع صحته، أو لما ينزل تلك المنزلة، وفي مواقف امتلاء النفس يقينًا بما هي مخبرة به، ثم جاء أسلوب القصر مصاحبًا لتوكيد آخر، حيث صدرت جملة القصر بـ (إن) المؤكدة لمضمون ما دخلت عليه، فازداد بها الخبر توكيدًا فوق توكيده، بيانًا لأحوال نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها)التي امتلأت عزًّا وفخارًا ببراءة الله ﷻ لها .

وعند مسلم: (ولا أحمد إلا الله، هو الذي انزل براءتي) بعطف جملة القصر على ما قبلها بالواو، مع خلو الجملة من التأكيد بـ (إن)، لتجمع قصر الحمد على الله مع نفي القيام لرسول الله (ﷺ)، وفرق بين معنى مجموع مع معنى، وبين معنى مرتب على معنى، ففي الثاني تبدو سببية الكلام الأول للثاني، وفي الأول تختفي تلك السببية .

وجملة: (هو الذي أنزل براءتي) عند مسلم، واقعة موقع الجواب عن أسئلة تثار في نفس المتلقي من قولها: (ولا أحمد إلا الله)، وفصل الجملة الثانية لتعطي للسامع حيزًا من الوقت يراجع فيه تلك الجملة، ويبحث عن أسباب صياغتها، فلما جاء قولها: (هو الذي أنزل براءتي) شفى غليل السامع في التطلع نحو معرفة سبب مقالتها الأولى، حين نفت قيامها لرسول الله (ﷺ) وقصرت الحمد على الله وحده، وهنا يتأكد المعنى من الناحية العقلية، وتتحقق المتعة النفسية(١).

ثم لا يزال فيض تعاظم الإحساس بالفخر بنزول براءة الله لها من فوق سبع سماوات ساريًا في كلام أم المؤمنين (رضي الله عنها)، فتستأنف خبرًا جديدًا، تحكي فيه ما أنزله الله . ﷻ . في شأنها، فتقول (رضي الله عنها) : (وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ**﴾ العَشْرَ الآيَاتِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي) ، ونلاحظ تكرار لفظ الإنزال هنا في أكثر من

(١) ينظر : أسرار الفصل والوصل . د/ صباح عبيد دراز (مطبعة الأمانة . ط : الأولى: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) صـ١١٦ .

موضـع؛ إشـارة إلـى الموضـع الشـريف الـذي أتـت منـه براءتهـا (رضـوان الله عليها)، وأنها قد سمت بسمو هذا الكلام المنزل، حين ارتفع بها عما يقوله أهل الإفك، والعلوّ دائما موضع نظر كل شريف .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ النور: ١١، هو بداية ما نزل في براءتها (رضوان الله عليها) ويمتد ليستغرق عشر آيات من السورة الكريمة، والحقيقة أن تلك الآيات العشر فيها من الأسرار ما يحتاج إلى دراسة مستقلة تكشف عن جلال النظم القرآني وجماله في تبرئة الله ﷻ لأم المؤمنين (رضي الله عنها) مما رماها به أهل الأفك .

وقولها: (العشر آيات) بيان لقولها: (وأنزل الله ...) وتعريف العشر بـ (أل) تعريف كمال، يكشف عن تعاظم إحساسها بتلك الآيات العشر التي سجلت براءتها، وجعلت منها وحيًا يتلى، وهي التي كانت ترجو أن يرى رسول الله (ﷺ) في نومه رؤيا يبرئها الله بها.

وقولها : (ثم أنزل الله هذا في براءتي) هو عين ما سبق، ولكن لهفة النفس إليه وتعاظم الإحساس به هو ما أجرى ذكره على لسانها (رضي الله عنها) مرة تلو أخرى، وكان يمكن أن تسقط حرف العطف (ثم) من الكلام، فيتصل قولها : (أنزل الله هذا في براءتي) بما قبله اتصالًا كاملًا؛ لوقوعه منه موقع التوكيد له، والمؤكَّد والمؤكِّد كالشيء الواحد فلا يفصل بينهما، ولكن العطف بـ (ثم) هنا جعل للكلام وقعًا آخر، وإحساسًا آخر، إذ عمل فيه هذا الحرف على استدعاء مشاهد الأحداث الماضية كلها، وكيف عجزت ألسنة المقربين منها عن الدفاع عنها، وجعل ذلك كله في جانب ورتبة ، وبراءة الله ﷻ لها في جانب آخر ورتبة أخرى ، ثم رسم هذا الحرف التفاوت الشديد والبون الشاسع بين الرتبتين(١).

(١) ينظر في إفادة حرف العطف (ثم) التفاوت الرتبي بين المعطوفين: أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء وثم). د/ محمد الأمين الخضري. (مكتبة وهبة- القاهرة. ط: الثانية: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م) صـ٢٢٨.

ثم جاء قولها : (قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ} – إِلَى قَوْلِهِ – {غَفُورٌ رَحِيمٌ} ،قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا) تكشف فيه عن موقف أبي بكر الصديق (ﷺ)، ـ وهو أحد أشخاص هذا المشهد الذي نزلت براءة الله فيه لأم المؤمنين (رضي الله عنها) . والملاحظ هنا هو التصريح باسم أبي بكر الصديق (ﷺ) والعدول به عن ذكر الأبوة التي صرحت بها فيما سبق حين قالت: (فقلت لأبي : أجب رسول الله (ﷺ) عني)، وكانت دليلًا على حالة الضعف التي كانت تعيشها أم المؤمنين (رضي الله عنها)، حيث كانت تتلمس المعونة من أقرب الناس إليها، فكانت تظهر درجة القربى هذه في كلامها، نحو: فقلت لأبي، فقلت لأمي، إبرازًا للُّحْمَةِ المستوجبة للدفاع والحماية والمعونة، أما وقد جاءت براءة الله لها فأغنتها عن معونة كل معين غير الله، فمن ثم أظهرت الإحساس بتعاظم النفس وقطعت حبال الرجاء بينها وبين الناس، حتى من هم أقرب الناس إليها، فقالت: قال أبو بكر، ولم تقل: (أبي).

وجملة: (وكان ينفق على مسطح بن أثاثة) جملة حالية، القصد منها بيان المعنى وإيضاحه فيما يتعلق بمقالة أبي بكر الصديق (ﷺ)، والمضارع في (ينفق) يكشف عن معادن هؤلاء الصحب الكرام، والسابقين الأولين في الإسلام، فلم يمنعهم ما يقوله الناس في أعراضهم من إيصال الخير لهم، طالما لم تقم حجة على بطلان ما يقوله الناس، وهذا ما ذكره ابن حجر (رحمه الله)، وجعلَ فعل أبي بكر دليلَ مشروعية ترك المؤاخذة على الذنب ما دام

احتمال عدمه موجودًا؛ "لإن أبا بكر لم يقطع نفقة مسطح إلا بعد تحقيق ذنبه فيما وقع منه"(١).

وقولها: (لقرابته منه وفقره) تعليل الإنفاق وباعثه، وتقديم القرابة على الفقر لتأكيد حقوق أولي القربى بعضهم على بعض، وعطف الفقر على القرابة لتأكيد الحاجة الباعثة على النفقة .

وجملة (والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدًا ...) مقول القول، وتصديره بالقسم يكشف عن حالة الغضب التي كانت تعتري الصديق (ﷺ)، وكيف كان عجزه عن مواجهة الخائضين في عرضه، وما كان يفرضه عليه صدق الإيمان من تحري أسباب المؤاخذة، حتى لا يقطع نفقة من تعاهده بها، ما دام احتمال صدق كلامه قائمًا، وهذا أمر لا يتحمله إلا من أوتي صدق الإيمان، فيقدم مرضاة الله على مرضاة نفسه، وبعد أن تحققت براءة أم المؤمنين مما نسب إليها فقد آن للصديق (ﷺ) أن يقطع عمن تطاول على عرضه ما كان يصله به؛ جزاءً له بسوء غدره، وفساد طبعه .

والتصريح باسم مسطح بن أثاثة في رواية البخاري يكشف عن تضييق دائرة المقطوع عنهم النفقة، حتى لا يتوهم أن أبا بكر الصديق(ﷺ) سيقطع نفقته عن مسطح وأمه . أيضا . ، وعند مسلم (لا أنفق عليه شيئًا) بالضمير؛ تحاشيًا لجريان ذكر اسمه على لسان الصديق (ﷺ) بعد ما ناله منه أذاه، وهذا يكشف عن شدة غضب الصديق (ﷺ) من مسطح.

وقوله: (بعد الذي قال لعائشة) ظرف فيه معنى العلة؛ لأنه متضمن لسبب قطع النفقة عنه، وهو قوله لعائشة ما قال، والتعبير باسم الموصول عن القول بيان لفظاعته وشناعته، وتكراره هنا مرتين في (الذي وما) تأكيد على تلك البشاعة والتفظيع، مما يقوي من دواعي قطع النفقة عنه.

(١) ينظر: فتح الباري : جـ٨/صـ٤٧٨ .

ويكشف حرف اللام في قوله: (لعائشة) عن أن ما يتناقله الناس ويخوضون فيه، لا يعدو أن يكون خبرًا ينقل إليها، وهي منه براء، وجملة : (فانزل الله : ...) من كلام عائشة (رضي الله عنها)، ونزول الآية تعقيب على كلام أبي بكر الصديق (ﷺ)؛ لأنها ترد عليه مقالته، وترشده إلى ما فيه الخير من مواصلة الإنفاق والحث على العفو والمصافحة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ النور: ٢٢، ويأتل: من الألِيَّة وهو اليمين ، والمعنى لا يحلف، وقيل هو من قولك: ما ألوت فلانًا نصحًا، ولم آل في أمري جهدًا، أي: ما قصرت، فالمراد: لا تقصروا في أن تحسنوا إليهم، ورُجِّح الأول؛ لقراءة: ولا يَتَأَلَّ : والمعنى لا يحلفوا ألا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان(١)، ودخول (لا) على الفعل المضارع، يعني امتداد زمن النهي وشموله للحاضر والمستقبل، وليس مقصورًا على تلك الحادثة، وخصوص هذا الجيل المبارك.

وجملة :(قال أبو بكر: ...) استئناف بياني، فيه معنى الجواب عن سؤال يثيره الكلام السابق في نفس المتلقي، تقديره: ماذا قال أبو بكر بعد نزول الآية، ومن ثم فصلت هذه الجملة عما سبقها . وقوله : (بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي) عبارة عن جملة من المؤكدات التي تدل على امتلاء النفس بالمعنى المقصود الإخبار به، وهو هنا التطلع إلى مغفرة الله ـ ﷻ ، وكمال الرغبة في حصولها، فصدرت الجملة بحرف الجواب (بلى)؛ ردًّا على النفي المجرد في قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ النور: ٢٢، والذي التفت فيه النظم الكريم بضمير المخاطب بعد افتتاح الكلام وجريانه على ضمير الغيبة، في قوله : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾، ولله درّ الإمام البقاعي (رحمه

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري : جـ٣/صـ٢٢٢، ومفاتيح الغيب أو التفسير الكبير . أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي . المتوفى سنة (٦٠٦هـ) (دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط: الثالثة : ١٤٢٠هـ) جـ٢٣/صـ٣٤٩ .

الله) حين علل هذا الالتفات بقوله: "ولما كانت لذة الخطاب تنسي كل عتاب، أقبل سبحانه بفضله ومنّه وطوله على أولي الفضل مرغبًا في أن يفعلوا بغيرهم ما يحبون أن يفعل بهم، مرهِّبًا من أن يشدد عليهم إن شددوا، فقال: (ألا تحبون)"[1] فقوله: (إن لذة الخطاب تنسي كل عتاب) تكشف عن قيمة هذا الالتفات.

وكان يمكن أن يكتفى بمجرد الجواب دليلًا على الرغبة في حصول المغفرة فيقال: بلى ، ولكن هل يتناسب ذلك مع لذة الخطاب التي تنسي كل عتاب، وقد حظي بها الصديق (ﷺ) ؟!، فكان من تمام إظهار الحفاوة بما حظي به (ﷺ) بعد إيجاب ما جاء السؤال عنه منفيًا، أن يترقى في تأكيد رغبته في حصول مغفرة الله له فيعقب الجواب بالقسم، ثم يأتي بحرف التوكيد (إن) ثم باللام، ثم يعيد على اللسان ما سبق التصريح به في النص الكريم وجاء السؤال عنه، من محبة مغفرة الله، كل ذلك دليلًا على شدة التعلق بما جاء الترغيب فيه، وإظهار الحرص عليه .

والفاء في قولها: (فرجع إلى مسطح النفقة...) رتبت إرجاع النفقة إلى مسطح على مقالة أبي بكر الصديق (ﷺ) على وجه يعكس شدة المسارعة في الاستجابة لأمر الله ـ ﷻ ـ بالعفو والصفح، وإيصال ما تعوّد أولو القربى على إيصاله إليهم من أولى الفضل والسعة، والفعل الماضي (رجع) يدل على تحقق إرجاع تلك النفقة التي اعتادها مسطح من أبي بكر (ﷺ) على أكمل وجه وأسرعه.

والمضارع في قولها: (التي كان ينفق عليه) يعكس دوام العطاء المتدفق من الصديق (ﷺ) على مسطح واستمراريته ، ثم أكد دوام هذا العطاء بقوله : (والله لا أنزعها منه أبدًا)، وأصل النزع: الاقتلاع [2]، ولا ينتزع إلا

(١) نظم الدرر : جـ١٣/صـ٢٣٩ .
(٢) لسان العرب . مادة (نزع)

الشيء المتشبث بغيره، وهكذا المرء مع المال، والنزع هنا مستعار لقطع النفقة، وليس لاسترداد ما أخذه المنفق، وهذا دليل على شدة تعلق مسطح ومن على شاكلته من الفقراء بالحصول على المال، خاصة ما تعودوا الحصول عليه.

ثم تستأنف أم المؤمنين (رضي الله عنها) خبرًا جديدًا تسترجع فيه مشهدًا من مشاهد قصتها، تلقي فيه الضوء على موقف بعض أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن) وذلك في قولها:

(وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ». فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالوَرَعِ، قَالَتْ: وَطَفِقَت أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ، فِيمَنْ هَلَكَ) .

تعد هذه الفقرة من الحديث استرجاعًا لزمن الأحداث والعودة بها إلى فترة سؤاله (ﷺ) وتتبعه لأحوال أم المؤمنين(رضي الله عنها) من خلال دائرة الأشخاص المقربين منها، فبعد ذكر موقف علي وأسامة (رضي الله عنهما) وموقف الجارية، كان من الوفاء في استقصاء الخبر وإلقاء الضوء على أركان القصة وتتبع ذكر الشخصيات التي لها مدخل في التأثير على شخصية أم المؤمنين (رضي الله عنها) في الحديث، كان من الوفاء بذلك أن ترصد موقف بيت النبوة ممثلا في نسائه (رضوان الله عليهن) .

واختصاص زينب (رضوان الله عليها بالذكر) فلما ذكرته أم المؤمنين عائشة من قرب منزلتها من رسول الله (ﷺ) فهي التي كانت تساميها في ذلك.

وأم المؤمنين زينب بنت حجش الأسدية هي ابنة عمة رسول الله (ﷺ)، أمها أميمة بنت عبد المطلب، كانت تحت زيد بن حارثة مولى رسول الله (ﷺ) وهي التي نزل فيها قول الله . ﷻ . : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٧ ، فزوجها الله . ﷻ . بنبيه بنص كتابه ... وكانت تفخر بذلك على أمهات المؤمنين، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات(١).

وقوله (ﷺ) لزينب (رضي الله عنها): "ماذا علمت أو رأيت" خرج الكلام فيه على وجه من الدقة في تتبع أخبار أم المؤمنين (رضي الله عنها) وبيان حالها، على وجه يرفع معه كل شك ويقطع عنها كل مقالة تعيبها، فالعلم طريقه هنا السماع، والرؤيا في هذا الموضع على حقيقتها، من الرؤيا البصرية، وحرف العطف (أو) في قوله (ﷺ) "أو رأيت" المقصود منه الترقي في حصول العلم بأمر عائشة (رضوان الله عليها)، والمعنى: ماذا حصل لك من العلم بأمر عائشة سواء من قبَل ما تسمعين بأذنك أو ترين ببصرك .

والملاحظ أن سؤاله (ﷺ) لزينب جاء مخالفًا لنسق سؤاله الجارية، فهناك توجه السؤال للعلم الحاصل لها بطريق الرؤيا فقط، فقال: "هل رأيت من شيء يريبك" ومن ثم جاء جواب بريرة راصدًا لحركة أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) التي أثارت في نفسها نوعًا من الريبة، وذلك حين نامت عن عجين أهلها فأتت الداجن فأكلته، وتلك حركة لا ترصد إلا عن طريق الرؤيا.

أما سؤال زينب (رضي الله عنها) فجاء مستوعبًا لطرق العلم من الرؤيا والسماع؛ نظرًا لما تفرضه طبيعة الضرائر، من تتبع أخبار كل واحدة منهن لأختها؛ رغبة في التقدم عليها وتحصيل المكانة عند زوجها، خاصة وأن زينب (رضي الله عنها) هي التي كانت تسامي أم المؤمنين عائشة (رضوان

(١) ينظر : سير أعلام النبلاء : جـ٢/صـ٢١١، وصحيح البخاري : كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء) حديث رقم :٧٤٢ .

الله عليها)، أما الجارية فقد قصر السؤال معها على ما كانت تراه من عائشة (رضي الله عنها) وذلك لكثرة ملازمتها لها وعدم عنايتها بتتبع أخبارها من غيرها.

والملاحظ في جواب أم المؤمنين زينب (رضوان الله عليها) أنه جاء على قدر السؤال، مراعيًا أبعاده ودقائقه، مع التمهيد له بما يناسب مقام النبوة من رفعة الشأن وعلو المقدار، حيث قالت: (يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا)، فأشارت إلى بعد مكانته (ﷺ) أولًا بأداة النداء (يا)، وقولها: (أحمي سمعي وبصري) تهيئة للجواب بما يدفع عن أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) ما رميت به، والمقصود حماية سمعها من أن تنسب إليه ما لم يسمع فتقول سمعت ولم تكن سمعت، وحماية بصرها من أن تنسب إليه ما لم يبصر، فتقول بصرت ولم تكن رأت شيئًا[1]، ومفعول الحماية محذوف يدل عليه السياق ومقام المتحدثين من أهل الورع، والمقصود حماية السمع والبصر من العذاب، وجملة: (والله ما علمت إلا خيرًا) هي مقصد الجواب، وتصديرها بالقسم لمزيد توكيد الجواب وتحقيقه، ومجيء الجواب في صورة القصر بالنفي والاستثناء تأكيد فوق التوكيد وتقرير فوق التقرير، ملاءمة للمقام الذي يسوده الشك والريبة، وتتقاذف فيه الألسنة سهام الاتهام لعرض أم المؤمنين (رضي الله عنها) فكان لا بد من تلك النغمة الحاسبة والنبرة القاطعة في إثبات الخير لأم المؤمنين (رضي الله عنها) على وجه من التعظيم والتفخيم يمتنع معه أن يدنس عرضها بسوء؛ لذا جاء تنكير الخير هنا لئلا يضع لنهايته حد، فهو كثير لا يحصى، وعظيم لا يقدر قدره.

وقول أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها): (وهي التي كانت تساميني..) من السموّ، وهو العلوّ والارتفاع، أي: تطلب من العلوّ والرفعة والحظوة عند النبي (ﷺ) ما أطلب، أو تعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي

(١) ينظر: عمدة القاري : جـ١٩/صـ٨٥ .

عنده[1]، والمفاعلة في (تساميني) تكشف عن الجهد المبذول من كل واحدة لتسمو على أختها، وتلك الجملة هي بمثابة تعليل الاختيار لذكر زينب دون من سواها من أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن)، وقد وبنيت العبارة في قولها: (وهي التي كانت تساميني..) على إسناد الفعل إلى ضمير المحدث عنه، بعد عطفه على ما سبقه بالواو، والجملة كلها في موقع الحال؛ لتبرز موقع أم المؤمنين زينب (رضي الله عنها) عند رسول الله (ﷺ) وعند أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها)، وبيان فضل تلك المرأة المؤمنة الشريفة التي عصمها الله بالورع، ولم تحملها مضاهاتها لأم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها) على أن تنقص قدرها أو تقول فيها ما لم يكن منها، وقد يكون ذلك . أيضا . سر تأخير الحديث عنها إلى نهاية الحديث، حين أرادت أن تعطي كل ذي فضل فضله، ممن شهد لها بالخير، وبيان عاقبة من خاض في عرضها.

وجاء قولها: (وطفقت أختها حمنة ...) يمثل رصدًا لهذين الموقفين المتناقضين، موقف أم المؤمنين زينب (رضي الله عنها) وهي التي كانت تسامي أم المؤمنين عائشة فعصمها الله وقالت: (أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا)، وموقف أختها التي عناها أن ترفع شأن أختها زينب (رضي الله عنها) على شأن أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها)، فطفقت تحارب لزينب (رضوان الله عليها) . دون علم منها.، وطفق من أفعال الشروع التي تجمع بين ظلّ وبات[2]، فهو يدل على دوام حركتها فيما شرعت فيه.

وقولها: (تحارب لها) استعارة تبعية، مثلت فيه جهدها ونشاطها في الارتفاع بمرتبة أختها، وإنقاص قدر أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها)

---

(١) نظر : فتح الباري :جـ٨/صـ٤٧٨ .

(٢) ينظر : شرح التسهيل . جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك . المتوفى سنة (٦٧٢هـ). تحقيق. د/عبد الرحمن السيد، ود/محمد بدوي المختون. (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع . ط: الأولى : ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) جـ١/صـ٣٨٩ ، والنحو الوافي : جـ١/صـ٦٢٠ .

بالمحاربة، بجامع استغراق الجهد والطاقة، ثم اشتقت من المحاربة بمعنى المجاهدة والمدافعة تحارب بمعنى تدافع، ووضعته موضعه، ولم يكن ما تفعله حمنة بنت جحش مما يعني أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن)، فقد كان ميدان التسابق بينهن في فعل الخيرات، وليس في إنقاص قدر بعضهن بعضًا . كما عليه غالب عادة النساء، فقد ورد في صحيح مسلم بسنده عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : قال رسول الله (ﷺ): "أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا"، قالت فكن يتطاولن أيتهن أطول يدًا، قالت : فكان أطولنا يدًا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق"[1].

وقولها: (فهلكت فيمن هلك) مترتب على الجملة السابقة ومتولد منها، ففعل الهلاك عاقبة أمر من خاض في حديث الإفك، وكلمة الهلاك بمادتها كلمة جامعة لمعاني الضرر والمحق والإزالة والإفساد[2]، فأوثر التعبير بها دون الحد أو الإثم لشمولها تلك المعاني وغيرها، من ألوان الضرر، جزاءً وفاقًا لمن نالها منهم أذى .

وحرف الجر (في) في قولها: (فيمن هلك) جعلها منغمسة في تلك العصبة التي هلكت بتقوّلها على أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وشمول الهلاك لهم جميعًا وإحاطته بهم .

ثم تأخذ أم المؤمنين (رضي الله عنها) في استقصاء عناصر قصتها، فتستدعي ذكر صفوان بن المعطل ثانية، وتسترجع له كلامًا قاله أثناء الحادثة، ثم ترصد أمورًا وقعت له وامتدت خارج سياق الحدث، فيما يعد نمطًا من أنماط القصة الحديثة، يلجأ إليه السارد في محاولة لكسر الترتيب الخطي

(١) صحيح مسلم . كتاب: الفضائل ، باب : فضائل زينب أم المؤمنين (رضي الله عنها) حديث رقم : ١٠١/ ٢٤٥٢ .

(٢) ينظر : لسان العرب . مادة (هلك)

للزمن، فيقدم وقائع على أخرى أو يشير إلى حدوثها سلفًا، مخالفًا بذلك ترتيب حدوثها في الحكاية[1]، فتقول (رضي الله عنها) :

"**وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ، قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**".

قلت إن قولها : (والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ...) يمثل استرجاعًا لمشهد من مشاهد أحداث القصة، استدعت فيه (رضوان الله عليها) كلامًا للرجل الذي قيل له ما قيل، وهو صفوان بن المعطل (ﷺ)، وصيغة التمريض في قولها: (قيل له ما قيل) هي لبيان ضعف هذا القول، وعدم رسوخه وثباته في بابه، وأنه عند التحقيق لا يبقى له أثر، ورغم هذا الضعف وعدم الصدق فإن هذا القول كان له من عظيم الأثر على المجتمع المسلم ما استدعى التعبير عنه باسم الموصول (ما) ليكشف عن هول ذلك القول وما استتبعه من شدة على نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها) ومن لحق بها من زوج وأب وأم، وكذلك ما كان له من وقع على نفس ذلك الصحابي الجليل، صفوان بن المعطل (ﷺ) .

وتأمل قولها: (قيل له) وكيف آثرت التعبير بالجار والمجرور (له) دون (عنه) أو (فيه) لتعطي من وراء هذا الحرف دلالة التنزيه والتشريف لذلك الصحابي الجليل، وبيان أن ما قيل هو مجرد قول تقاذفته الألسنة فاستقر في الأسماع، دون أن يكون له واقع يطابقه، وهو ذات المعنى الذي رمى إليه قول

(١) ينظر: إشكالية الزمن في النص السردي .د/ عبد العاطي بوطيب . مجلة فصول . المجلد الثاني عشر. العدد الثاني : ١٩٩٣م . صـ١٣٥ ، وبنية السرد في القصص الصوفي (المكونات والوظائف والتقنيات) . د/ ناهضة ستّار (اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٣م) صـ٢٠٢، والبنية السردية في روايات نبيل عبد الحميد . د/ميرفت محمد فوزي (الهيئة المصرية العامة للكتاب . ط :الأولى : ٢٠١٧م) صـ١٣٤.

أبي بكر في شأن مسطح: (وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ) .

وجملة : (ليقول : ...) خبر إنّ، وجاء مؤكد باللام لمزيد تحقيق هذا الخبر وتوكيده؛ لما فيه من مواجهة ما ترسخ في أذهان الناس، ولم يرفع إلا بتبرئة الله ﷻ لها .

وجملة: (سبحان الله ! فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط) هي مقول القول، وقد تتابع فيها أسلوب التعجب وأسلوب القسم، وهما من الأساليب التي تكشف عن امتلاء النفس وانفعالها، حين تفاجأ بسماع أو رؤية لم تكن تتوقعه، فتعمد لإزالة آثار تلك الدهشة من خلال التوكيد بأعلى أساليبه وهو القسم.

والمعنى العجيب هنا هو ما قاله الناس له، مع شرف مقام أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وصلاحه وورعه، الذي حكاه عنه النبي (ﷺ) في قوله: " ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما يدخل على أهلي إلا معي"، والمعنى المقسم عليه، والمراد تحقيقه وتمكينه في نفس السامع، هو نزاهته (ﷺ) عن تلك الفاحشة، وقد كنى عن ذلك المعنى بقوله (ما كشفت من كنف أنثى قط) والكَنَف بفتحتين: هو الثوب الساتر، ومنه قولهم: أنت في كنف الله أي: في ستره[1]، ودخول (من) على النكرة في سياق النفي يفيد عموم نفي الكشف لكل كنف، (وقط) لتأكيد النفي في الزمن الماضي وتأبيده، ومن ثم اختلف في بيان المقصود من قول صفوان (ﷺ): (ما كشفت من كنف أنثى قط)، والراجح فيه أن المقصود به ما كان في حُرمة، أو ما كان قبل تلك القصة؛ لورود الأخبار بزواجه (ﷺ)[2].

(١) لسان العرب . مادة (كنف) ، وفتح الباري: جـ٨/صـ٤٦٢ .

(٢) ينظر في تحقيق الخلاف في تلك لمسألة : فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦٢، وعمدة القاري: جـ١٣/صـ٢٢٩ .

ثم جاء قولها (رضي الله عنها): (ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله) يمثل انتقالًا بزمن الحكي إلى خارج حدود الحدث المسرود ليرصد لحظة وفاته (ﷺ) والحال التي لقي ربه عليها، وما تمثله من حسن خاتمة لحياة ذلك الصحابي الجليل.

وتمثل هذه الجملة التي ختمت بها أم المؤمنين (رضي الله عنها) حديثها، دليلًا قويًا على أن زمن سرد تلك القصة جاء متأخرًا جدًا عن زمن وقوعها.

والعطف بـ (ثم) هنا يكشف عن تلك المدة المتطاولة بين وفاته (ﷺ) وبين زمن تلك القصة، وقد نقل ابن حجر (رحمه الله) أنه استشهد في غزوة أرمينية في خلافة عمر سنة تسع عشرة، وقيل بل عاش إلى سنة أربع وخمسين فاستشهد بأرض الروم في خلافة معاوية [1]، المهم أن ثمة زمنًا متطاولًا يفصل بين استشهاده (ﷺ) وبين أحداث تلك القصة بما فيها من آلام وصعاب، يشير اسم الإشارة (ذلك) في قولها (بعد ذلك) إلى شيء من تلك الشدة، كما يعكس اسم الإشارة . أيضا. تلك المفارقة التي حصلت في حياة ذلك الصحابي، بين ما قيل له أثناء تلك الحادثة، وبين ما ختم الله له به من استشهاد في سبيل الله.

والله أعلم،،،

(١) ينظر : فتح الباري : جـ٨/صـ٤٦١.

الخاتمة

وبعد هذه المعايشة لهذا النوع من البيان الذي تخالطت فيه الأساليب وتنوعت فيه التراكيب وتداخل فيه بيان القرآن الكريم مع بيان النبوة وبيان الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) وإن كان غالب الحديث فيه لأم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليها)، مما يمثل نموذجا صعبًا في الدراسة والتحليل، يصعب رصد خصائص تراكيبه، ونتائج تحليل عابراته وأساليبه، غير أنه . بعد الاستعانة بالله . ﷻ . يمكن تلخيص أبرز سمات هذا البناء التركيبي فيما يلي:

أولًا: يُعدّ هذا الحديث نموذجًا لبناء سرديّ متكامل الأركان يرصد قصة الإفك بكل تفاصيلها، والتمهيد لها، ورصد ما تلاها، مراعيًا الأدوات والتقنيات التي تكتمل بها عناصر القصة من زمان ومكان وشخوص واستباق واسترجاع للأحداث، في بناء محكم النسج ، قوي الربط، ينم عن نفس واعية بما ترصد من أحداث.

ثانيًا: كثرة الجمل الحالية مثل : (فاحتملوا هودجي ... وهم يحسبون أني فيه، وأتينا الجيش موغرين في نحر الظهرية وهم نزول...) وغيرها من تلك الأحوال التي تكشف عن خفايا النفوس، وشدة ما اعتراها من آلام، ونقل أدق تفاصيل هذا الحدث الذي اهتز له بيت النبوة .

ثالثًا: كثرة الأساليب الإنشائية وتنوعها وتتابعها في كثير من المواضع، مثل (تعس مسطح، قلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلًا شهد بدرًا ، فقالت: أي هنتاه، ولم تسمعي ما قال؟ قالت: وقلت: ما قال؟) وقولها: (فقلت: سبحان الله!، أو لقد تحدث الناس بهذا) وقوله (ﷺ): " يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا) وغيرها من الأساليب التي ترصد موران النفس واضطرابها في موقف تشوبه الشدة من كل جوانبه .

رابعًا: جاء أسلوب القصر في كثير من مواطن الحديث سالكًا طريق النفي والاستثناء، في مقامات يشوبها الشك والإنكار، ويكشف عن امتلاء النفس

يقينا بما هي آخذة في الإخبار به ، مثل قول أسامة (ﷺ) : (أهلك ، ولا نعلم إلا خيرًا) وقوله (ﷺ) : " والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما يدخل على أهلي إلا معي".

خامسًا: كان للتنكير وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة في الحديث الدور البارز في رسم شدة تلك الحادثة على نفس أم المؤمنين (رضي الله عنها)، ورغبتها في طيّ تلك الصفحة بما فيها من شدة وأحزان. وذلك كما في قولها (رضي الله عنها): (فأقرع بيننا في غزوة غزاها ...، حتى إذا فرغ من غزوته تلك ...، ولا أشعر بشيء من ذلك ... وقولها : ولم تسمعي ما قال ... ، وإن الرجل الذي قيل فيه ما قيل . إلى غير ذلك من الأساليب التي وردت الإشارة فيها ما قاله الناس وخاضوا فيه .

سادسًا: التأثر بألفاظ القرآن وأساليبه التي وردت في تسجيل القرآن لتلك القصة، كما في تسمية هذا الحدث إفكا في قولها : وكان الذي تولى كبر الإفك ... والناس يخوضون في قول أصحاب الإفك ... فأخبرتني بقول أهل الإفك)، كما بدا هذا التأثر جليا . أيضا . في استحضار مشهد يعقوب (عليه السلام) مع أبنائه، وجريان لسانها (رضي الله عنها) بما جرى على لسانه (عليه السلام) في التلبس بالصبر، والتبرؤ من كل حول وقوة عدا حول الله وقوته، وذلك في قولها : فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ يوسف: ١٨.

سابعًا: جاء رصد الحركة الجسمية في بعض مواطن الحديث كاشفًا عن مدى ما وصلت إليه النفس من قوة وتهيؤ، أو ضعف وهوان من خلال تضامن تلك الحركة للألفاظ المعبرة عن تلك الشدة أو ذلك الضعف، كما في قولها (رضي الله عنها): (فقام رسول الله (ﷺ) على المنبر) وقولها: (فقام سعد بن معاذ)، (فقام رجل من الخزرج)، (ثم تحولت واضطجعت).

ثامنًا: إشباع الحديث عن بعض الشخصيات الواردة في الحديث بذكر أحسابها وأنسابها؛ رغبة بيان أواصر القربى التي تربط بين تلك الأشخاص وبين

السيدة عائشة (رضوان الله عليها) لبيان مدى ثقتها فيهم، وإظهار الشناعة عليهم متى لحقها منهم أذى ، كما جرى في ذكر أم مسطح وولدها، يقابل ذلك الإشارة إلى شخصيات أخرى إشارة مقتضبة لا ترصد من أحوالهم إلا أفعالًا بعينها؛ تركيزًا على تلك الأفعال في مقاماتها المختلفة، وذلك كما جرى في شأن المرأة الأنصارية التي استأذنت على أم المؤمنين (رضي الله عنها) وجلست تبكي معها، فلم يرصد الحديث شيئًا عن تلك المرأة إلا أنها جلست تبكي مع أم المؤمنين (رضي الله عنها) وهو ما كان يعنيها (رضوان الله عليها) في هذا المقام الذي غاب عنها فيه كل معين، إلا ما تلمسته من تلك المرأة الشريفة من مشاركة وجدانية لها .

تاسعًا: جاء زمن رواية الحديث متأخرًا جدًّا عن زمن وقوع أحداثه، مما كان له أثره في البناء التركيبي للحديث، حيث اتسم في أكثر مواضعه بالهدوء النفسي، والتعليل المنطقي للأحداث، وهذا ما رأيناه في تعليل حمل الجيش لهودج أم المؤمنين وذلك بخفة النساء في ذلك الوقت، ثم أخذت تعلل تلك العلة بأنهن كن يكتفين بأكل العلقة من الطعام، وكما ذكرت . أيضا . في تعليل نسيان اسم نبي الله يعقوب (عليه السلام) من أنها كانت جارية حديثة السن لا تحفظ كثيرًا من القرآن .

❁❁❁❁❁

وبعد فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من زلل من نفسي والله ﷻ . أسأل أن يتقبل مني ما كتبت خالصًا لوجهه مبتغيًا به مرضاته، وأن يتجاوز عني ما قصرت فيه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

محمد عبد الكريم محمد عاشور

مدرس البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١. الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم . د/ صباح عبيد دراز . (مطبعة الأمانة ـ القاهرة . ط : الأولى : ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).
٢. أسباب نزول القرآن الكريم . أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي . المتوفى سنة (٤٦٨هـ) . تحقيق : كمال بسيوني زغلول (دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط: الأولى : ١٤١١هـ)
٣. أسرار الفصل والوصل . د/ صباح عبيد دراز (مطبعة الأمانة . ط : الأولى : ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) .
٤. أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء وثم) . د/ محمد الأمين الخضري . (مكتبة وهبة ـ القاهرة . ط: الثانية : ١٤٢٧هـ . ٢٠٠٧م) .
٥. أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا . د/ عبد الغني بركة . (دار غريب للطباعة والنشر . ط : الأولى . دون تاريخ)
٦. إشكالية الزمن في النص السردي .د/ عبد العاطي بوطيب . مجلة فصول . المجلد الثاني عشر. العدد الثاني : ١٩٩٣م .
٧. إكمال المعلم بفوائد مسلم : أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض . المتوفى سنة (٥٤٤هـ) . تحقيق : د/ يحي إسماعيل. (دار الوفاء للنشر والطبع والتوزيع . ط : الأولى : ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م)
٨. آل حم (غافر وفصلت) دراسة في أسرار البيان . د/ محمد محمد أبو موسى . (مكتبة وهبة ـ القاهرة . ط : الأولى : ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٩م.
٩. الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) . للخطيب القزويني. تحقيق : إبراهيم شمس الدين . (دار الكتب العلمية . بيروت ـ لبنان . ط : الأولى ٢٠٠٣م ـ ١٤٢٤هـ)

١٠. بغيـة الإيضـاح لتلخـيص المفتـاح فـي علـوم البلاغـة (المعـاني والبـين والبديع) . الشيخ /عبد المتعال الصعيدي . (مكتبة الآداب ـ القاهرة . ط: السابعة عشرة : ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م)
١١. بنية السرد في القصص الصوفي (المكونات والوظائف والتقنيات) . د/ ناهضة ستّار (اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٣م)
١٢. البنيـة السـردية فـي روايـات نبيـل عبـد الحميـد . د/ميرفـت محمـد فـوزي (الهيئة المصرية العامة للكتاب . ط: الأولى : ٢٠١٧م).
١٣. البيان والتبيين . عمرو بن بحر بن محبوب المعروف بالجاحظ .المتوفى سنة (٢٥٥هـ) . (دار ومكتبة الهلال ـ بيروت . ١٤٢٣هـ) .
١٤. تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي . تحقيق: عبد الستار أحمد فراج . (مكتبة حكومة الكويت . سلسلة التراث العربي . ١٣٨٥هـ .١٩٦٥م).
١٥. التبيان في أيمان القرآن . أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية .المتوفى سنة . (٧٥١هـ) . تحقيق /عبد الله بن سالم البطاطي (دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة . ط: الأولى : ١٤٢٩هـ).
١٦. التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا: أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد . المتوفى سنة (٢٨٥هـ) . تحقيق : إبراهيم محمد حسن الجمل. (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع . دون تاريخ).
١٧. التوضيح شرح الجامع الصحيح . ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي الشافعي المصري. المتوفى سنة (٨٠٤هـ) . تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث . (دار النوادر ـ دمشق سوريا ط: الأولى : ١٤٢٩هـ . ٢٠٠٨م) .
١٨. الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه والمعروف باسم " صحيح البخاري " لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل

البخاري ت (٢٥٦ هـ). تحقيق/ محب الدين الخطيب و محمد فؤاد عبد الباقي . (المطبعة السلفية ـ القاهرة . ط : الأولى : ١٤٠٠هـ)..

١٩. الجنى الداني في حروف المعاني . أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي . المتوفى سنة (٧٤٩هـ) . تحقيق : د/فخر الدين قباوة ، أ/محمد نديم فاضل . (دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط: الأولى : ١٤١٣هـ . ١٩٩٢م)

٢٠. دلالات التراكيب . دراسة بلاغية . أ.د/ محمد محمد أبو موسى . (مكتبة وهبة ـ القاهرة . ط : الرابعة : ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م).

٢١. دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة (٤٧١هـ) تحقيق: أبو فهر محمود محمد شاكر . (مكتبة الخانجي ـ القاهرة . ط: الخامسة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م)

٢٢. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي . المتوفى سنة (٤٨٥هـ) . (دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط: الأولى : ١٤٠٥هـ)

٢٣. ديوان امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف . سلسلة ذخائر العرب . ط : الخامسة دوت تاريخ)

٢٤. سير أعلام النبلاء . شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . المتوفى سنة (٧٤٨هـ) . تحقيق : شعيب الأرناؤوط (مؤسسة الرسالة . ط : الثالثة : ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) .

٢٥. السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي . المتوفى سنة (٧٧٤هـ) . تحقيق : مصطفى عبد الواحد . (دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت ـ لبنان . ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٦م)

٢٦. السيرة النبوية لابن هشام . جمال الدين عبد الملك بن هشام . المتوفى سنة (٢١٣هـ) . تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ

الشلبي . (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر . ط : الثانية : ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥م)

٢٧. شرح أحاديث من صحيح البخاري . دراسة في سمت الكلام الأول . د/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة ـ القاهرة ط : الثانية : ١٤٣هـ ـ ٢٠١٠م)

٢٨. شرح التسهيل . جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك . المتوفى سنة (٦٧٢هـ). تحقيق. د/عبد الرحمن السيد، ود/محمد بدوي المختون. (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع . ط: الأولى : ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

٢٩. شرح التصريح على التوضيح . زين الدين خالد بن عبد الله بن أبي بكر الأزهري . المتوفى سنة (٩٠٥هـ) . (دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان . ط : الأولى : ١٤٢٠هـ . ٢٠٠٠م).

٣٠. شرح المفصل للزمخشري : موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش . المتوفى سنة (٦٤٣هـ) تحقيق : د/ إيميل بديع يعقوب . (دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان . ط: الأولى : ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م)

٣١. شرح شافية ابن الحاجب . ركن الدين حسن بن محمد بن شرف شاه . المتوفى سنة (٧١٥هـ) . تحقيق : د/ عبد المقصود محمد عبد المقصود (مكتبة الثقافة الدينية . ط: الأولى : ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م).

٣٢. شروح التلخيص . (دار البصائر . القاهرة . ط :الأولى : ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م) .

٣٣. صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري . تـ (٢٦١هـ). تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . (دار الحديث . القاهرة .ط: الأولى ١٤١٢هـ . ١٩٩١م) .

٣٤. الطبقات الكبرى . أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي المعروف بابن سعد المتوفى سنة (٢٣٠هـ) . تحقيق : محمد عبد القادر عطا (دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط :الأولى : ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م)

٣٥. طرح التثريب في شرح التقريب : أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي . المتوفى سنة (٨٠٦هـ) . وأتمه ولده أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين المتوفى سنة (٨٢٦هـ) . (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان . دون تاريخ).
٣٦. علم البديع. دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع . د/ بسيوني عبد الفتاح فيود . (مؤسسة المختار ـ القاهرة . ط : الثالثة : ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م)
٣٧. عمدة القاري شرح صحيح البخاري . بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني . المتوفى سنة (٨٥٥هـ) (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . دون تاريخ طباعة).
٣٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، ومحب الدين الخطيب، وعبد العزيز بن عبد الله بن باز (دار المعرفة ـ بيروت . ١٣٧٩هـ).
٣٩. الكتاب : أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر الحارثي . الملقب بسيبويه . المتوفى سنة (١٨٠هـ) تحقيق : عبد السلام محمد هارون . (مكتبة الخانجي ـ القاهرة . ط : ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م)
٤٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري . المتوفى سنة (٥٣٨هـ) تحقيق : الشيخ /عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ /علي محمد معوض . (مكتبة العبيكان ـ الرياض . ط : الأولى : ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م)
٤١. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري . شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني . المتوفى سنة (٧٨٦هـ) (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان . ط: الثانية . ١٤٠١هـ . ١٩٨١م).

٤٢. لسان العرب : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور المتوفى سنة (٧١١ هـ) . (دار صادر ـ بيروت . ط: الثالثة : ١٤١٤هـ)

٤٣. معجم البلدان : أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي . المتوفى سنة (٦٢٦هـ) . (دار صادر ـ بيروت . ط: الثانية : ١٩٩٥م)

٤٤. معجم الفروق اللغوية : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري . المتوفى سنة (٣٩٥هـ) . تحقيق : محمد إبراهيم سليم (دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة . ١٩٩٨م).

٤٥. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . أبو محمد جمال الدين ابن هشام الأنصاري المتوفى سنة (٧٦١هـ) . تحقيق : عبد اللطيف محمد الخطيب (المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت . ط :الأولى : ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م)

٤٦. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير . أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي . المتوفى سنة (٦٠٦هـ) (دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط: الثالثة : ١٤٢٠هـ) .

٤٧. المقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية. الإمام بدر الدين محمود بن أحمد العيني . المتوفى سنة(٨٥٥هـ) تحقيق : أ.د/ علي محمد فاخر ، وأ.د/أحمد محمد توفيق السوداني، ود/ عبد العزيز محمد فاخر. (دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة . ط : الأولى : ١٤٣٠هـ ـ ٢٠١٠م)

٤٨. منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري : حمزة محمد قاسم . تحقيق/ عبد القادر الأرناؤوط . (مكتبة دار البيان . دمشق . سوريا، ومكتبة المؤيد . الطائف . ١٤١٠هـ . ١٩٩٠م).

٤٩. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج : أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف النووي . المتوفى سنة (٦٧٦هـ) . (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . ط: الثانية : ١٣٩٢هـ) .
٥٠. النحو الوافي . عباس حسن . (دار المعارف . ط : الخامسة عشرة . دون تاريخ).
٥١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي . المتوفى سنة (٨٨٥هـ) . (دار الكتاب الإسلامي . القاهرة . دون تاريخ).
٥٢. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم . المتوفى سنة (٦٨١هـ) . تحقيق : إحسان عباس (دار صادر ـ بيروت. ط: الأولى: ١٩٧١م) .